
روايات عبير
sarah
فيوليت وينسبير
العروس الأسيرة
www.liilas.com/v63
Sarah
١
liilas.com

روايات عبير

العروس الأسيرة

دائما يرتبط الحب بالجمال، دائما يكون العاشق شبيهاً بادونيس والعاشقة شقيقة عشتار. الا ان هذه القاعدة، ككل قاعدة لها شواذها. ورافينا التي احبت رودري الجميل ما لبثت ان وجدت نفسها حيال رجل محروق الوجه واليدين، يطارده ماضيه كالظل، وفي ارجاء قصره المنيع في سردينيا وقعت اسيرة ذلك الماضي وتلك «المحروق»... فهل تبقى هناك وهل يطل الورد من غابة الشوك؟

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية

THE UNWILLING BRIDE

المراسلات:

Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece.

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١- مفاجأة في العرس

وضع العريس يده فوق يد العروس وراحت اليدان تقطعان كعكة الزفاف بين هتافات التهنئة، ورنين الكؤوس، وجلجلة ضحكات المدعوين.

سأل أحدهم العريس:

"حقا ما يتردد في وطنكم بأن الرجال يصفعون العروس في يوم زفافها حتى تعرف من هو السيد؟"

ابتسم مارك دي كورزيو وقال:

"انت تتكلم عن أهالي صقلية أما أنا فأحد أبناء سردينيا."

وبينما كان مارك يجيب على أسئلة تدور كلها حول سردينيا، ناول أحد المدعوين العروس ظرفا صغيرا أصفر اللون وقال لها:

"هذه الرسالة وصلت لتوها يا رافينا، أتوقع أن تحمل في طياتها حظا سعيدا لك."

وشاب ابتسامتها شيء من التوتر، عندما فضت الرسالة وراحت تقرأ فحواها، عندئذ ألقت نظرة سريعة على مارك، وفي لمح البصر دستها في أحد قفازيها الحريريين، وغمر الشحوب وجهها حتى بدت عيناها بلون الجواهر الخضراء.

وأخيرا حان وقت الصعود الى الطابق العلوي لارتداء ملابس رحلة شهر العسل. اعتذرت من احدى صديقاتها التي تقدمت تبغي مساعدتها في تغيير ملابسها وقالت لها:

"أنا ... أنا ... أريد أن أنفرد بنفسي."

أسرعت تتخلص من ثوب الزفاف الذهبي الشاحب، والشال

المزين بشريط من شرائط ويلز• لم يستغرق التغيير وقتا طويلا ، وعندما ارتدت ملابس الخروج وقفت أمام نافذة غرفتها ، وتأملت شجرة الدردار التي ارتفعت وسط الحديقة ، وحملها الحنين الى الماضي فرأت رودري وهو يتسلق الشجرة ويقبع بين أغصانها • وكان يوما ما يبدو لها فارس أحلامها المغوار ، وفي يوم آخر يتلبسه الشيطان ويأخذ في مشاكستها • هكذا شبت هي ورودري سوياً في ذلك البيت على حدود ويلز • كان الابن الوحيد للكولونيل كاروت برينين (١) ، الوصي عليها لعدة سنوات • وكثيرا ما كانت تعتبره في منزلة والدها ، وتكن له أعظم الحب •

ومنذ ثمانية عشر شهرا استقال رودري من الجيش، ورحل الى نيوسوث ويلز في استراليا ليشتغل بالزراعة هناك• وكانت ضربة قاسية نزلت على رأس جاردي الذي يعتز كثيرا بالشهرة التي أحرزها في الخدمة العسكرية ولم تدهش رافينا مما أقدم عليه رودري الذي يعتبر سليل أسرة عسكرية وعريقة يواكب تاريخها تاريخ مقاطعة ويلز، وكان لزاما على رودري أن ينخرط مثل أبيه في السلك العسكري• وكانت رافينا تعرف أن رودري برينين يتنازعه دائما القلق المسيطر على حياته تماماً•

فبعدما تسلم وظيفته، اختار أن يقوم بمهمة خاصة في قبرص، وكانت كبرياء جاردي لا تعرف الحدود، اذ غضب عندما عرف أن ابنه سوف يمضي إجازته في الخارج، ولم يكد يرحل رودري إلى قبرص حتى ترك الخدمة العسكرية•

راحت رافينا تحدق عبر نافذة غرفة نومها ، ويبدو أنها عادت تسمع مرة أخرى وقع حوافر حصان على الحصى الذي يكسو ساحة الحديقة، وذكرها الوقع بيوم كانت تقف في المكتبة حين سمعت وقع حوافر أعقبه وقع خطوات حذاء تعبر الشرفة التي تقع أمام نوافذ المكتبة، وتذكرت نوبة الفزع التي تملكتها عندما رأت قوام مارك دي كورزيو يعتم زجاج النوافذ•

حدق كل منهما في الآخر عبر الزجاج، ثم دلف الى المكتبة بلا دعوة، وقال لها :

"مساء الخير يا آنسة برينين"•

وعندما انحنى لها انحناءة قصيرة، أحست بالتوتر الذي كانت تشعر به كلما قدم لتناول طعام الغذاء في رافنهول•

كان شريكا في الأعمال التي يمارسها جاردي، ولكن هذه كانت المرة الأولى التي التقيا فيها على انفراد• كان يعيش في الخارج بمنأى عن الجميع، ويعتبر أكبر سنا من جميع أصدقائها ، وتكتنفه هالة من الغموض•

كان معتدل القامة ومع ذلك يوحي بأنه شخص طيع عندما يهل عليها ، وكانت أسنانها تكز على شفتها السفلى بقسوة كلما وقع بصرها على الجانب الأيسر من وجهه الذي لفحه سعير النار، وكانت تغض بصرها عنه بسرعة، وكأنما ترى في وجهه صورة الشيطان وقد اقترنت بها صورة الملاك•

قال لها وهو يضغط على مخارج الكلمات:

"أرجو أن تكوني متمتعة بصحة جيدة يا رافينا"•

"أخشى ألا يكون باستطاعتك لقاء جاردي، فهو موجود الآن بالخارج"•

قال:

"ما جئت إلا لرؤيتك"•

نزلت كلماته كالصدمة المفاجئة، وتفحصت وجهه المتعالي الذي يوحي بأنه كان ذات يوم يتسم بالوسامة، أما الآن فتبدو الصرامة القاسية في ملامحه• واستطرد يقول:

"جئت عن قصد في هذه الساعة لأنني أعرف أن وصيك سوف يكون خارج المنزل• في هذا الأصيل يمارس لعبة البولنغ مع صديقه القديم في الجيش ايوين كيريو، أليس كذلك؟"

"إنني لا أكاد أعرفك يا سنيور دي كورزيو! ولا أظن أن هناك شيئا يمكننا أن نتبادل الحديث عنه"•

وواجهته بنظرات مستقيمة كاستقامة شعرها الأحمر الداكن، وثابتة كثبات عينيها الخضراوين•

قال وعلى شفتيه ابتسامة ملتوية:

"ستعرفينني جيدا خلال لحظات"•

وأشار الى مقعدين عميقين فوقهما وسادتان صغيرتان من الجلد• وقال:

"من فضلك دعينا نجلس، وإلا ظننت أنك تودين الفرار مني."

وتوترت أعصابها، وكان يحدوها حافز قوي يدعوها أن تطلب منه مغادرة رافنهول في الحال، ولكنه إذ التقى بصره بعينيها، أحست أنه يقرأ أفكارها. فقالت له بحزم:

"أستطيع أن أمنحك خمس دقائق. إنني أعد الطعام و جاردي يحب أن يتناول عشاءه في موعده."

"من فضلك اجلسي يا سينيورينا."

امتثلت لطلبه وجلس هو بدوره، وتقاطعت ساقاه، وسقط الضوء على حذائه الجلدي اللامع، وكان سرواله وسترته من قماش التويد، ويدل مظهرهما على حسن حياكتهما، ولم يحمل معه سوطاً، مما يدل دلالة كافية على أنه يثق بنفسه في قيادة الخيول، والناس أيضاً، بلا سوط. وسألها:

"هل تسمحين لي بالتدخين؟"

فأومأت بالايجاب، وراقبته وهو يخرج سيكاراً رفيعاً وقصيراً من علبة جلدية، أشعله بعود ثقاب، وكاد اللهب يقترب من أنامله، قبل أن يلقي بالعود الى المدفأة التي كانت خاوية، لأن فصل الصيف بدأ يزحف تدريجياً ويغزو الطقس البريطاني.

"أشعر دائماً بالبرد عندما أجيء الى انكلترا، فالشمس تشرق نادراً، نسبة اليها في بلدي."

"حقاً ياسنيور!"

ونظرت اليه بأدب، دون أن تحدوها أدنى رغبة في أن تسأله من أين أتى، وكانت تتمنى أن يفضي بما لديه ثم يرحل، فقد أزعجها قدومه. وقطع عليها وحدتها، وتمنت أن يرحل بأسرع ما يمكن.

قال:

"مهلاً يا سنيورينا، وتمالكي زمام أمرك، واسألي نفسك لماذا قطعت عليك خلوتك في عقر دارك؟"

قالت بصوت بارد:

"نحن غريبان وليس بيننا شيء مهم، ولكن يبدو لي أنك تريد أن أصغي اليك."

قال:

"جئت أروي لك حكاية ياآنسة بريتين."

"أنا منصتة لك يا سنيور. من فضلك ابدأ قصتك."

"أنا أرمل، زوجتي الصغيرة دونانا ماتت بعدما ولدت ابننا، فكرست كل حبي لابني الصغير دريستي. كان طفلاً نشيطاً، محباً، حنوناً، ومنذ ثمانية عشر شهراً دهم سائق مخمور سيارتي حيث كان ينام دريستي في المقعد المجاور لي، وولى هارباً، وترك سيارتي مقلوبة على ظهرها، والنيران مشتعلة فيها."

وضعت رافينا يدها على خدها، وكأنها تتلقى صدمة عندما وقع بصرها على الندبة التي خلفتها النار على وجه مارك، وواصل حديثه بخشونة:

"وقعت أنا وابني في شرك داخل السيارة، وبذلت جهوداً مجنونة لكي أحطم النوافذ لأحمل ابني بعيداً عنها ولكن .. يا إلهي لو أن المجرم توقف وساعدني، لكان في وسع ابني أن يعيش حتى اليوم."

ولم تستطع رافينا أن تتحمل التفكير في أن الطفل يموت بهذه الطريقة فقالت:

"أوه ... لا!"

واستطرد مارك يقول:

"انفجر خزان البنزين، وتطاير جسدي وهو يحترق ليسقط في حقل مجاور. فأسرع العمال لاطفاء النيران. كانوا يعملون على مبعدة، ولم يكن في وسعهم الوصول الى العربة قبل انفجارها. كان السائق الطائش وحده هو الذي يستطيع أن يقدم لنا المساعدة. وأمضيت عدة أشهر في المستشفى، بعدها رحت أقتفي أثر الرجل، وعن طريق الكراج الذي أجرى الاصلاحات لسيارته عرفت أن اسمه رودري بريتين، الضابط في الجيش البريطاني، والموفد في مهمة خاصة الى قبرص."

وتألقت عينا مارك دي كورزيو بتأنيب مرير عندما استقرتا على وجه رافينا، ثم كساهما بياض أشاع الشلل في شفتيها.

قال:

"ابن وصيك، تسبب في موت ابني."

وكانت كلماته تملأ الغرفة ويشوبها الألم والغضب، ثم استطرد يقول:
"دريستي كان في الرابعة من عمره، وهو آخر هدية حب قدمتها زوجتي لي. ابني كان وريثي في أرضي، وعقاري، وكان سيحمل اسمي من بعدي، وموضع التشريف من أهالي سردينيا لعدة سنوات. إن كلمة الشرف لها معناها لدى أهالي الجزيرة، وأعتقد أيضا أنها تعني شيئا لرجال من أمثال كولونيل كاروت برينين."
صاحت قائلة:
"جاردي؟ أنت تقصد أن تخبره بأن رودري كان مخمورا وهو يقود سيارته وأنه تسبب في الاصطدام بسيارتك؟ لا تستطيع أن تفعل ذلك!"
ونهضت واقفة على قدميها، ثم أردفت قائلة:
"سوف تقتله!"
ونهض مارك واقفا بدوره وقال:
"من تقاليد بلدي، أن أسرة الآثم لابد أن تدفع عوضا عن الخزي والعار، وثمنا عن الأضرار التي لحقت بالمجني عليه. إننا نؤمن بأن أسرة الرجل الذي اقترف خطأ عليها أن تتلقى اللوم بصورة ما."
قالت:
"ولكننا نعيش في انكلترا."
لم تكن رافينا تؤمن بأن أي رجل مهما أوذي في قلبه أو جسده يمكن أن يوجه اللوم الى جندي عجوز قديم بسبب خطأ ارتكبه ابنه. وأردفت تقول:
"إننا .. إننا نحاول أن نغفر .. يا سنيور. إننا لا نسأل أحدا أن يدفع ثمنا لخطأ ارتكبه."
"أنا من سردينيا، وقد مكثت ثمانية عشر شهرا أسأل نفسي، ما هو الثمن الذي يمكن لأحد أفراد أسرة هذا المنزل أن يدفعه، واليوم وجدت الجواب على سؤالي."
"أنت تهدف الى ايذاء جاردي."
"ليس هذا ضروريا يا آنسة برينين."
"ولكنك أشرت .."

وحدقت في الرجل وتعلقت بالأمل، لكنها اصطدمت بنظراته العنيدة السوداء، إذ أنه من سلالة رجال يتصفون بالكبرياء والعاطفة والجسارة.
قال مارك دي كورزيو عن عمد:
"جاردي في غنى عن معرفة أن ابنه شخص جبان."
"كيف..؟"
ودقت الساعة لتعلن عن سكون معذب، وهي تنتظر منه أن يواصل حديثه، ولكنه كان هادئا، مما دفعها الى أن تراه في صورة النمر المتحفز للانقضاض على فريسته. كان الصمت الذي ران عليهما يحمل في طياته إنذارا بالهجوم. قال بهدوء:
"سوف تتزوجين مني، وستهبين لي ولدا، بدلا من الولد الذي فقدته."
ولم تصدق رافينا أذنيها، وانعقد لسانها فلم تتكلم، ولكن الكلمات تدفقت فجأة:
"لا يمكن أن تكون جادا."
"لم أكن أكثر جدية كما هو الحال في هذه المرة."
"هذا جنون! لا أستطيع الزواج منك."
قال وابتسامة ملتوية ترتسم على شفتيه:
"أنت تظنين أنك لا تستطيعين الزواج مني. إن الحب وحده سوف يجبرك على الاقتران بي."
قالت متسائلة:
"الحب؟"
وشعرت بتيار بارد يسري في جسمها وعندما تحركت كانت تنشد الهروب من نظرته، ومن ندبته، ومن عينيه وحاجبيه السوداوين، ولكنه تقدم نحوها يعترض طريقها، وتحت وطأة الخوف استخدمت سلاح الاحتقار وهي تقول له:
"هل تتصور أنني أستطيع أن أحبك؟"
قال ساخرا:
"لا .. إن خيالي ليس بهذه القوة، ولكنك تحبين جاردي، ولن تقبلي إيذاءه أو أن تكوني سببا في حرمانه من الحب الذي يكنه لابنه."
"أنت قاس ياسنيور دي كورزيو."

"لم أعتد أن أكون قاسيا يا سينيورينا، ولكن رجلا اسمه رودري برينين جعلني أكون قاسيا."

وحدقت عيناه السوداوان في عينيها، تشع منهما القسوة، وعدم الرحمة، وحدثها قلبها بأن بيت برينين سيدفع الثمن لقاء الطريقة الأليمة التي فقد بها مارك ابنه الصغير.

حاولت رافينا أن تتحدث اليه بتعقل مع أن نبضات قلبها كانت مضطربة، فقالت له:

"ما الذي تجنيه مني يا سنيور لو أنك تزوجت امرأة لا تحبك؟ وماذا يحدث لو أنني أخبرتك بأنني أحب رجلا آخر؟"

"هل تحبين رجلا آخر؟"

قالت بتحد:

"ان أحب رجلا آخر، هذا شأني."

ونفض رماد سيكاره في المدفأة وقال:

"على العكس، باعتبارك زوجتي، من واجبك أن تنسي هذا الرجل الآخر."

"هل تعني أنك تجبرني على الزواج منك؟"

وأحست فجأة بالاضطراب، والحيرة، ولم تستطع أن تخفي شعورها فبدا جليا في نظراتها الخضراء.

قال مارك:

"خلال الأسابيع القليلة الماضية عرفت شيئا عنك يا آنسة برينين، وخاصة عن مدى حبك الشديد للكولونيل جاردي الذي يعد أبا بالنسبة اليك، والحب يعتبر شيئا جميلا أقدره في المرأة، خاصة أنني من أهالي سردينيا، ولكنني أفضل أن يحل الولاء مكان الحب."

فصاحت قائلة:

"جئت وأنت مستعد لأن تطأ بقدمك عنق أحدهم، وانه حان الوقت لأخضع لك لأنك تعرف أن جاردي تعرض لنوبة قلبية منذ فترة قصيرة وأن نوبة أخرى قد تودي بحياته."

"بل تبين لي أن وصيك يعتبر شخصية جذابة، وصريحة، ولبقة في الحديث، وسيكون من الألم أن يبدد مشاعر أبوته على ابن لا يتمتع بالجاذبية."

أحست رافينا أنها تنزع الشفقة من قلبها نحو صاحب الوجه المشوه، في الوقت الذي تشعر فيه بالألم نحو الطفل الذي مات في الحريق. قالت:

"إنك تزيد الموقف مرارة."

"هكذا نبني أحلامنا. فمن المؤسف أن احطم أحلامك لأبني فوقها أحلامي."

وضاقت جفونه وهو يتطلع اليها، وتوترت بشرته السوداء فوق فكيه وهو يستطرد قائلا:

"ستكون هناك تعويضات .. يا رافينا."

شعرت بأصابع صارمة تطبق حول رسغها، ففتحت عينيها لتجد مارك دي كورزيو قد اقترب منها، وشعرت بالكآبة عندما التقى بصرها بعينيه، واجفلت من ندبته، ورأت النيران تتصاعد من خياشيمه والرغبة الشديدة تتراقص على فمه، وكانت رافينا قد عاشت حياتها لا تشعر بأي خوف، تتمتع بالمراوغة التي تسحر بعضهم وتشيع الاضطراب عند البعض الآخر، ولكنها الآن تقع تحت رحمة حبها لوصيها جاردي، وهي عزلاء من أي سلاح.

قال:

"سأطلب من الكولونيل برينين الموافقة على زواجي منك، وأنت بدورك تزعمين انك ترغبين في هذا الزواج كما أرغب فيه أنا."

وأحنى رأسه وقبل يدها الباردة المضطربة، وأحست بأطرافها تجمدت عندما سمعته يتمتم:

"أنت ترتدين سراويل تشبه سراويل صبي، ويجب أن تفهمي أنني أريدك امرأة."

وتحول عنها، وتناول وردة من الزهرية الموضوعة على المنضدة وثبتها في عروة سترته، وقال لها:

"أراك مثل الزهور، وفي سردينيا تنمو الزهور فوق التلال قبل أن تشتد حرارة الشمس، وبيتي يقع فوق ربوة كبيرة من الصخر على مبعدة من البحر."

"هل تحبين البحر يا سينيورينا؟"

أجابت بحركة آلية:

"عشت هنا معظم حياتي، أحب القرية التي تحيط برافنهول، إنني أنتمي إليها."

"آه، ولكن عندما تتزوج امرأة، فانها تتوقع أن تترك وراءها بيتها لتنضم إلى زوجها، أما بالنسبة الى الرجل الآخر الذي تحدثت عنه فهل يعيش في هذه الناحية؟"

قالت مغمضة العينين:

"أجل، لا تتوقع مني أن أتخلى عن كل ما أحب. أرجوك يا سنيور."

وعندئذ تطلعت اليه، ورأت أنه لن يتأثر بكلامها، ولم يكن من طبيعتها التذلل والتوسل، فابتلعت توسلها وتعلقت بكبريائها، وقالت:

"إذا أجبرتني على أن أفعل ذلك، فإنني أعدك بأن أكرهك بكل قطرة من الدم السلتي (٢) الذي يجري في عروقي."

قال مبتسما:

"وانا أيضا يجري في عروقي دم سلتي يا رافينا. كانت جدتي تنتمي الى شعب كورنوول، ولهذا السبب دعيت مارك. هل تعرفين أسطورة مارك الذي كان ملكا على كورنوول!"

حدقت رافينا في عينيه وقالت:

"طبعا أعرفها. زوجته أحبت الفارس الذي أتى بها من أيرلندا، وفضلته على أن تكون عروسا للرجل الذي لا تستطيع أن تحبه."

وألقى نظرة سريعة على النوافذ التي اسودت بالسحب المنذرة بهطول المطر، أو هبوب عاصفة الصيف. قال:

"الحب معان كثيرة يا سينيوريتا. إن الرجال في صقلية يصفعون وجه عروسهم في يوم زفافها، أما نحن رجال سردينيا فندخر هذه الصفعة للمناسبة التي تستحقها. والآن أظن أن الوقت حان للعودة إلى الفندق حيث أقيم، إنه فندق "الذئب والحمل" في هذه القرية العتيقة، وبالقرب منه تقع اصطبلات الخيل، ولكوني أحد أبناء سردينيا فقد ولدت على ظهر جواد."

رافقته حتى اجتاز ساحة الحديقة الى المكان حيث ترك

الجواد، وكان جوادا أسود اللون.

واعتلى مارك ظهر الجواد بحنكة دلت على أنه رجل خبير بركوب الخيل، ثم قال لها:

"أرجو أن تسألي الكولونيل برينين أن يتيح لي فرصة رؤيته ظهر الغد. إن من دواعي التقاليد الرسمية أن يسأل المرء والد الفتاة أو وصيها موافقته على زواج ابنته. ستكونين أنت موجودة هنا أيضا لتضعي خاتم الزفاف في أصبعك."

زمجرت العاصفة، واندفع الجواد بفارسه تجاه ضوء الفسق، ورفع الفارس يده ملوحا وهو يقول "وداعا". وأثارت حوافر الجواد سكون العاصفة كما أثار الفارس ضربات قلبها.

انتابها احساس بالقدر الذي أنشب أظافره في قلبها. فقد رأت أنها لا تستطيع أن تخبر جاردي بما فعله ابنه بمارك دي كورزيو. انها لا تستطيع إيذاءه، أو أن يتعرض لاحدى النوبات القلبية مرة ثانية لأن الطبيب قال:

"إن جاردي يشعر بقلق على ابنه رودري. أطفالنا هم الحب والهلاك الذي يدمر حياتنا."

وفكرت رافينا في ابن مارك وأحست ببرودة تمسك بتلابيب عظامها، فان الميتة الرهيبة التي لقي بها الطفل مصرعه نغصت حياة أبيه لدرجة أنه لم يعد يحس بأي شعور بالرحمة، على الأقل نحو أفراد عائلة برينين.

لابد أن يدفع برينين الثمن. واختيرت هي بالذات لأنها وحدها تستطيع أن تقدمه له، وهذا الثمن هو طفل آخر... ابن آخر.

تراجعت رافينا عن النافذة، وسارت الى منضدة الزينة، ووقفت أمامها في ثوبها الأخضر، يهزها التوتر، وراحت تقرأ مرة ثانية البرقية التي تسلمتها في غرفة الاستقبال على أنها برقية تهنئة للعروس، ولكن البرقية كانت في الواقع موجهة الى وصيها. فضتها وقرأت:

"الابن الضال يعود يا أبي. أصل بقطار الثالثة والنصف. الحب لك و لرافينا."

رودري في طريقه الى البيت! وسحقت رافينا البرقية

في قبضة يدها، ورأت أن من واجبها أن تلتقي به قبل أن يصل الى البيت الذي تستعد لمغادرته هي و مارك لقضاء شهر العسل. وعليها أن تحذره بألا يبوح بسره، كما احتفظت به مطويا عن جاردي. عزيزي جاردي الذي قدم سيفه إلى مارك لكي يقطع كعكة الزفاف. وابتسمت عندما مر بخيالها أنها ما تزوجت مارك دي كوزيو الا لتنقذ رودري.

سيعرف رودري أن الصبي الذي قتله بتهوره واستهتاره هو ابن مارك، كما أن وصول رودري لم يكن متوقعا من أحد، وقد يفضي بالحقيقة لأبيه.

انتزعت رافينا حقيبة يدها، وتسللت من غرفتها، وتناهت اليها أصوات الضحكات الصادرة من الردهة، ومثل الشبح اتخذت سبيلها عبر طريق السلم الضيق الذي يقع عند نهاية الدهليز، وقادها الى باب جانبي، وفي استعجالها نسيت غضب زوجها عند ما يكتشف اختفاء عروسه المفاجىء.

وعندما بلغت ساحة الحديقة كان الجو مشبعاً بضباب خفيف ينذر بالمطر. لم يرها أحد حينما دلفت مسرعة إلى الكراج، لتستقل سيارتها وتقودها إلى الطريق، حتى بلغت ساحة محطة السكك الحديدية، التي وجدتها مهجورة، كما خيم صمت مطبق على المكان، عندما سارت على الرصيف بدا القطار على مرمى البصر، وهو يسعى عند إحدى المنحنيات حتى بلغ المحطة الصغيرة، وملأها بضجيجه، وانفتحت الأبواب، وهرولت الأقدام تغادر القطار، وظلت رافينا ساكتة في مكانها حتى أقبل عليها شاب نحيل القامة، أسمر اللون، يحمل في يده حقيبة سفر من القماش، ويرتدي سترة جلدية فوق كنزة أحكمت فتحتها عند عنقه لتقيه برودة المطر.

وضع رودري الحقيبة على الرصيف، وحدق في وجهها مدة طويلة، ثم قال ضاحكا:

"رافينا، لقد كبرت. أصبحت كائنا كاملا، ساحرة صغيرة، خضراء العينين."

مكثت رافينا صامتة ولم تعرف ما تفعله سوى التطلع

اليه. وها هو يعود بعد افتراق استغرق عدة شهور، ولم تستطع أن تصدق أن هذا الوجه المألوف لديها، وهذا الصوت الذي تعرفه، يخصان شخصا متهورا ومخمورا وهو يقود سيارته.

وقف بعيدا عنها، فالأفضل له أن يتأملها من بعيد. وتفحصها مليا ببصره، وتأمل ثوبها الاخضر، ثم قال لها:

"تبدو عليك الأناقة .. أين أبي؟"

"رو دري، تعال معي إلى السيارة، لابد أن أتحدث اليك."

واصطبغت عيناه بالقلق وسألها:

"هل أبي بخير؟ هل هو مريض ثانية؟"

وهزت رأسها بالنفي قائلة:

"لا، إنه أحسن حالا مما كان عليه في الأيام الماضية. إنه يعمل بعض الوقت في وظيفة بإحدى الشركات، في منصب اداري، كما أنه عضو في المجلس المحلي. وأنت يا رودري تبدو عليك الصحة."

لم تلاحظ رافينا عليه أية دلالة على أنه يكابد أي شعور من تأنيب الضمير، ومن الجلي أن مدة ثمانية عشر شهرا قضاها في استراليا ساعدته على أن تمحو من ذاكرته ما حدث في سردينيا.

التقط حقيبته، والتفت ذراعه حول وسطها وراح يقودها الى السيارة، وقال لها:

"أشعر بأنني لائق صحيا، أما أنت فيبدو على وجهك الشحوب. لم تعد عيناك تضحكان كعهدي بهما، هناك شيء خطأ، أليس كذلك؟"

ولم تجب على تساؤله، ودلف الى السيارة، وجلست وراء عجلة القيادة، وعندما أمسكت بها شعرت به يحملق في يدها اليسرى، ورأى خاتم الزواج والى جواره خاتم آخر من الزمرد الخالص، يتألقان في أصبعها، وفجأة قال:

"رافينا !!"

واستدارت نحوه تقابل عينيه المصدومتين قائلة:

"أرسلت لك برقية أخبرك فيها بزواجي، ولم يكن لدينا أدنى

"فكرة أنك في طريقك الى الوطن."
"تزوجت؟!"
"هيا بنا، وفي الطريق سوف أخبرك بكل شيء.."
كان المطر أشبه بالضباب يكتنف الهواء، وهي تقود السيارة خلال دروب المدينة الهادئة، وأخبرته بكل شيء، في صوت هادىء غير عاطفي. وجلس إلى جوارها مشدوها، أشعل لفافة تبغ، وسحب نفسين، ثم سحقها وألقى بها خارجا، وكأنه يكابد مرارة الصدمة. قال لها:
"لا يمكنك احتمال الأمر. سأخبر أبي بكل شيء.."
قالت ببرود:
"وتقتله؟ ألا تظن أنك ارتكبت ما فيه الكفاية؟ مات طفل صغير.."
وكسا وجهه قناع من الألم والأسف المرير، وهو يقول:
"رافينا! أنا .. ظننت أنه يمكن نسيان كل شيء. إنني أخطو على درب الجبن مرة أخرى."
"كل ما تفعله هو عدم إيذاء جاردي. هل تسمعني يا رودري؟
"ولكن ما هو الثمن يا رافينا؟"
"زواجي."
وأوقفت السيارة عند منحنى هادىء، والتفتت تتطلع إليه وأردفت تقول:
"سأعتاد العيش في أرض غريبة."
"مع رجل لا تحبينه؟"
"هل قلت إنني لا أحبه."
"أنا أعرفك جيدا يا رافينا، عيناك لا تجمدان بل تبعثان الدفء ما دمت سعيدة، كانتا تتألقان يا رافينا في الأيام الخوالي."
قاطعته قائلة:
"لا داعي للحديث عن الأيام الخوالي، لن تخبر جاردي بأي شيء عما حدث في سردينيا. انتهى الأمر، ولن يعود الصبي الصغير الى الحياة.."
"أنت فتاة صغيرة حمقاء يا رافينا! هذا الزواج يجب أن

يفسخ قبل أن يبلغ مداه. يا إلهي، هل تظنين أنني أدعك تعيشين مع رجل أجبرك على الزواج منه؟ هل تعتقدين أن أبي سوف يتخلى عنك لو عرف الحقيقة؟"
قالت:
"يجب ألا يعرف يا رودري! أن قلبه لن يتحمل الموقف. اسأل دكتور شاني."
سألها وقد لاح وجهه في عينيها وكأن السنين تقدمت به:
"بهذه الدرجة من السوء؟"
سألته:
"هل تعتقد أنك تستطيع الافلات من دون أن تنال عقابك؟ مارك دي كورزيو يكابد ندوبه على وجهه وفي أغوار نفسه. هل تسمعني يا رودري؟ إنه يكابد ندوبه.."
عندئذ انهار رودري برينين، وبدأ ينتحب كالطفل الصغير، فربتت على شعره الأسود، وحاولت تهدئته. وتمتمت قائلة:
"يجب أن تمكث في فندق القرية حتى الغد. أنت لا تستطيع أن تقابل جاردي في هذه الحالة، ومن الأفضل أن تتوجه الى البيت بعد أن أرحل أنا و مارك الى سردينيا. هل تفهمني؟"
هز رأسه، وعندما استعاد رباطة جأشه ثانية، أدارت المحرك، وقادت السيارة في اتجاه الفندق، ولكنها لم تجرؤ أن تترك رودري وحده، كان اليأس مسيطرا عليه، وفي أمس الحاجة اليها، فمكثت معه في ردهة فندق "الذئب والحمل"، وراحت تجاذبه أطراف الحديث.
قال رودري شاحب الوجه:
"رافينا، سيقتلك عندما تعودين اليه.."
وتطلعت الى الساعة المعلقة على الحائط، وشعرت بأصابع باردة تعتصر قلبها، ولأول مرة فكرت في مارك وفي غضبه.
قالت:
"أجل، يجب أن أعود، يجب أن تعدني يا رودري بأنك لن تفضي بشيء لأبيك. سيكون الأمر فوق طاقته.."

وثبت عينيه على وجهها وقال:
"وماذا عنك أنت؟"
وقفت على قدميها، وتناولت حقيبة يدها ووشاحها، وقالت:
"سأكون بخير، كما يقول لي كل واحد اليوم. مارك ثري وصاحب قري وله مكانة مرموقة في سردينيا. وسوف أصبح سيدة بيته."
وزمجر رودري قائلا:
"كان هذا كله هو ما يهمك. أنت الفتاة التي أعرفها جيدا. أنت أبعد عن كل أنانية."
قالت ضاحكة:
"لا تجعلني أبدو في صورة وعلى فكرة جونيث كيريو ما زالت عزباء، وفاتنة كأغنية ويلز. تذكر كيف كنت دائما ميالا اليها. جاءت اليوم لتشهد حفل زفافي، وأشارت قائلة أليس من العار ألا يشهد رودري زفافك."
وعندئذ هرعت رافينا تبتعد عنه وعن الدهشة وعن الفندق لترتمي في أحضان الليل والمطر. قادت سيارتها عائدة الى رافنهول، عيناها الخضراوان متجمدتان كحجر الزمرد الذي يزين خاتمها، وحدثت نفسها بأن في وسعها أن تتحمل أي شيء الآن، حتى غضب مارك.

* * * *

دخلت المنزل لتجده خاويا من المدعوين، ولم يبق شيء سوى الزهور مدلاة في مزهرياتها وقد تناثرت تبلاتها على أرضية القاعة، وعندما أغلقت الباب الأمامي وقع بصرها على شبح طويل يقف وسط الصالة الخافتة الضوء، وسعى مارك آتيا من المكتبة، وشعرت بوخزة من الخوف تسري في أعماقها، وهو يتقدم نحوها، في سترته السوداء.
سألها غاضبا وهو يهز كتفيها بيديه:
"أين كنت؟"
ظلت صامتة وعندما اشتدت قبضة أصابعه على كتفيها،

لم تتح له الفرصة لكي يدرك مخاوفها. وكان الهدوء الذي تكلم به أشبه بلسع السياط تنزل فوق جلدها، وبعد هذا الصمت قال:
"هيا، اخبريني أين كنت؟ ستفسرين لي سبب غيابك، وسوف تنتحلين كذبة. كان علينا أن نخبر المدعوين بأن وعكة ألمت بك، وأن رحيلنا الى المطار قد تأجل. إنني أكره الخديعة يا رافينا."
"هل حقا تكره الخديعة يا مارك؟"
تطلعت اليه، وتساءلت: "أي اسم آخر يمكن أن يطلق الناس على زواجهما". وأردفت تقول:
"لاشك أنك سمعت عن الاضطرابات العصبية التي تعتري العروس في ليلة زفافها، سيطرت بعضها على نفسي، ووجدت أنه من الخير لي أن أنطلق بنفسي خارجا لفترة وجيزة!"
طوى طرف كم سترته، وتطلع الى ساعة يده، وقال:
"لكنك أمضيت عدة ساعات، ومن حقي أن أعرف أين أمضيت هذه الفترة؟"
قالت:
"كنت أقوم بجولة في سيارتي."
كان ما تقوله نصف الحقيقة، ولكنها لم تستطع أن تواجه نظرات عينيه وراحت تتطلع الى باب المكتبة المفتوح، وسألته:
"أين جاردي؟"
"أخلد الى النوم وهو جالس في مقعده متوتر الأعصاب قلقا عليك."
ومست هذه الكلمات عصبا حساسا عندها، وعندما شرعت السير تجاه المكتبة، أمسك مارك برسغها، وجذبها ثانية وأوقفها في مواجهته وسألها:
"هل أمضيت كل هذا الوقت مع رجل؟"
كان من المحتم أن يحدس جزءا من الحقيقة، ولكنها لا تستطيع أن تخبره بالباقي. إنها لا تقوى على أن تفضي له بعودة رودري إلى انكلترا، وأنها اصطحبته في سيارتها. سوف يدرك أن قاتل ابنه هو الرجل الذي تحب. وأنها تورطت في زواج لا يقوم على الحب من أجل حمايته.

انتابها شعور من اليأس البارد بعث الشجاعة في أعماقها لأن تتحداه فقالت له:

"هل آن الآوان يا زوجي لأن تصفع عروسك؟ هل رأيت أنه من المذلة أن تختفي عروسك في ليلة زفافها، وأنها لا تمتثل بالخضوع لك حتى يبدأ شهر العسل؟"

حملق في وجهها، وشعرت بقبضة أصابعه تهشم عظامها. وسألها معايرا:

"كم يلزمك من الوقت حتى تعرفيني حق المعرفة؟ هل تتصورين حقا أن ما أحبه في المرأة هو الخضوع فقط وليس شيئا آخر؟"

"يبدو أنك قدمت أعذارا واهية للمدعوين عن غياب عروسك، وهذا ما دعاهم الى الدهشة."

"أتوقع أن دهشتهم منا ستلازمهم لعدة أسابيع مقبلة، وسيتوهمون يا رافينا أنك ما تزوجت مني الا من أجل مالي، وأين أجد المرأة التي يمكن أن تحب وجها مثل وجهي؟"

التوت شفته بابتسامة شاحبة، وأمسك بذراعها الأخرى، ومال عليها، ولكنها جاهدت لكي تبتعد عن وجهه المشوه بالندبة. ولابد أنه قرأ في عينيها ما يخالجها، فقد كانت لا تحس بأية رقة في لمسته وهو يميلها فوق ذراعه حتى بدا شعرها وكأنه جناح من اللهب يجابه نسيج كمه الداكن.

تمتم قائلا:

"انظري مليا في وجهي. يجب أن تعتادي عليه، لأنني لا أريد أن يكون زواجنا مجرد ظل."

تركها وسار بعيدا عنها تجاه السلم حيث استدار ينظر اليها، وقال:

"نمضي الليلة في رافنهول، ونرحل غدا."

وصمت قليلا ثم انفجر ضاحكا، وبهدوء قال ساخرا:

"لا حاجة بك الى إغرائي بعينيك. إن شهر العسل سوف يبدأ في سردينيا وليس هنا."

وتراخت أصابع يدها في بطء عندما غاصت فحوى كلماته في عقلها المتعب. وقالت:

"أنت تقصد."

قال:

"سنطير غدا جنوبا. الليلة ستقفين صامدة على قدميك، فأنا لست شيطانا كما أبدو لك."

ولاح الاجهاد والدموع في عينيها وهي تتطلع اليه. لو أن لديها الشجاعة لأن تفضي له بأنها كانت بصحبة رودري، ولكنها كانت تخشى ثورة غضبه، كما أنها لا تثق في رحمته. وأخيرا قالت له:

"أنا .. أنا .. يجب أن أذهب الى جاردي."

الا أنها لم تكد تبلغ باب المكتبة حتى استدارت لتلقي نظرة أخرى على مارك. وعندما أسرعت بالدخول الى المكتبة، تململ وصيها في مقعده وفتح عينيه، وابتسم قائلا:

"عزيزتي."

وفتح ذراعيه لاستقبالها، واندفعت نحوه كالطفل، الذي يبحث عن الطمأنينة والقت بنفسها على صدره، وتمتم قائلا:

"مارك كان غاضبا، لا تهربي ثانية يا عزيزتي. أنت امرأة متزوجة الآن. أنت تعرفين ذلك."

وضغطت وجنتها على كتفه وقالت:

"أجل، يا جاردي."

"كنت دائما فتاة ذات بصيرة نافذة. أليس كذلك؟ هل أنت متأكدة من أنك سعيدة مع هذا الرجل؟

وأدركت نبرة الحرص والشك في صوت جاردي، وفي الحال رأت أنه من الضروري أن تبعث الطمأنينة في نفسه:

"وأي شيء آخر تنشده الفتاة عندما تتزوج من رجل؟"

وابتسمت ابتسامة عريضة في وجه الذي تحبه وتحترمه كثيرا. ثم قبلته في وجنته. وحدثت نفسها بأن غدا سيعود رودري الى البيت والى أبيه، وسيكون في ذلك عزاؤه عندما يجتمع شملهما!

٢- من يجرح الحجر؟

الدروب عبر الجبل ضيقة، ملتوية حول نفسها، وبدت السيارة وكأنها تحيد عن مسارها، لتستقر في أعماق البحر. وكانت الرياح تلطم زجاجها مما أضاف مزيدا من الاحساس بخطر داهم، خاصة أن قيادة سيارة على حافة أرض غريبة، ومتجهة الى غاية مجهولة، كان في نظر رافينا ضربا من الخيال.

جلست رافينا صامتة في المقعد المجاور قرب زوجها، وأغمضت عينيها حتى لا ترى المنحنيات التي تتلوى عبر الطريق، ويبدو أن عاصفة الصيف اقتفت أثرهما منذ غادرا بريطانيا، وظلت ملازمة لهما طوال الطريق.

قال مارك بعد مضي ساعة من الصمت:

"آسف أن صورة الجزيرة التي أفسدتها مياه الأمطار هي أول منظر يقع عليه بصرك."

وفتحت رافينا عينيها فوقع بصرها على الصورة الجانبية لوجهه التي حدد معالمها ضوء العاصفة، فشاهدت ألسنة النار وقد تركت بصماتها على صفحته، وبعد صمت وجيز استطرد يقول:

"يعتبر كاستل ديل توري واحدا من أجمل معالم سردينيا عندما تلقي الشمس بأشعتها عليه، ويعبق الهواء برائحة الليمون."

كان يتحدث اليها كواحد من ممثلي شركات السياحة، وهو يحاول أن يقنعها بأنها بحاجة الى الشمس فقط لكي تعشق

مدينته.

تساءلت هل يمكنها أن تحب هذا المكان النائي الذي يقع بعيدا عن وطنها وعن جاردي الذي استأجر مديرة بيت لترعى شؤونه.

ذلت رافينا جهدها لكي تقاوم حنينها الى الوطن الذي راح يؤرق مضجعها وتطلعت الى يد مارك وهو يدير عجلة القيادة، ثم نقلت بصرها الى آثار الندوب التي انحفرت غائرة في جلده الأسمر.

وكان مارك يركز انتباهه على الطريق عندما قال:

"لابد أنك تشعرين الآن بالاعياء، ولكن بعد ميل أو اكثر ستلوح لك كازاتشيبريسو، وستشاهدين أشجار السرو التي تعلو في كبد السماء كالمشاعل وسط الأمطار. ومن المحتمل جدا أن يصفو الجو غدا وتشرق الشمس وتحت الكازا تقع بساتين الليمون التي تقترب من البحر. والكروم المزروعة على جوانب التل."

سألته بأدب:

"هل تمتلك حصة من الأرض؟"

وشعرت أنه يبتسم باستياء، وأجاب:

"مساحة جيدة. أنا معروف هنا باسم بارون الأرض، والفلاحون الذين يعملون في أرضي هم أحفاد الفلاحين الذين عملوا عبر السنين مع أجدادي. الأحداث لا تتغير سريعا في سردينيا لأن أسلوب حياتنا ما هو الا صورة مستمرة للماضي."

قالت وأصابعها انعقدت على حقيبة يدها، وتشبثت بالجلد:

"أنت تقصد النظام الاقطاعي وأنت نموذج للاقطاعيين، كلمتك هي القانون في هذه الجبال، والناس يحنون هاماتهم إجلالا لك."

قال:

"لا ينحني أي سرديني لأحد. أنا أحمل اللقب فقط، ولكنني لا أحصل على حصة من إنتاج الأرض اكثر مما يحصل الأشخاص الذين يفلحونها."

"وأنت لك العسل، أليس كذلك؟ أم أن زوجتك وحدها سوف تستخلص العسل لك."

ألقى مارك نظرة سريعة عليها وسألها:
"عم تتحدثين؟"
"في الايام الغابرة كان الاقطاعيون في مقاطعة ويلز يفوزون بنصيب الأسد في كل شيء، ويستخلصون العسل للحاكم، ويقومون بتقديمه له في قصره الذهبي."
"إذن سوف تستخلصين العسل يا رافينا لتقديمه قربانا لسيد قصر السرو."
قالت ضاحكة:
"أجل يا مارك، سأقدم ثيابي وشعري كما يفعل أي عضو سابيني، فإنني لا أملك سواهما."
"سناديك أهلي باسم بادروتشينا، أي "السيدة الصغيرة"."
وأشاحت ببصرها عنه، وتطلعت زائغة البصر عبر النافذة المجاورة لها، وراح يتحدث اليها وهو يعتقد أن عروسه سعيدة، وفي لهفة إلى رؤية بيتها الجديد.
ويبدو أنه كان لا يأبه كثيرا أنها ستعاني الوحدة، والخوف من وجودها في أرض غريبة مع رجل لا يحبها، ولا يهتم بامرأة لا تكن له الحب.
كانت ترى أن الحب وحده كفيل بأن يبعث في المرء الشجاعة، والرغبة في رؤية الأشياء الجديدة، ومقابلة حب استطلاع الناس ومواجهة عداوتهم.
كانت رافينا هي الزوجة الثانية التي تأتي الى قصر السرو، وحدثتها غريزتها بأن دونانا كانت جذابة ومحبوبة من الجميع، وتتميز بالشعر الأسود والعينين الناعستين كفتيات الجنوب.
استدارت العربة عند احدى منحنيات الطريق الجبلي، ولاحت في الأفق أشجار السرو السامقة، وبرجا منزل مارك اللذان يبرزان عاليا فوق الصخور المطلة على البحر.
كان القصر يبدو كقلعة مظلمة كئيبة، وأشجار السرو في هيئة حراس حوله، ومضى البرق بصورة متقطعة عندما أوقف مارك السيارة، ورأت رافينا درجات سلم

حجري، وعددا من المصابيح الحديدية معلقة على الجدران التي تحيط بالباب الأمامي المرتفع.
لفحت الريح خصلات شعرها، وملابسها وهي تغادر السيارة وسارت حتى وقفت عند أولى درجات السلم. ويبدو أنه لم يكن مناسبا أن تصل الى هنا أثناء هبوب العاصفة. انضم إليها مارك. ولاحظت قطرات المطر تعلو صفحة وجهه وبريقا يتلألأ في عينيه.
قال لها:
"أهلا في بيتك الجديد."
وقبل أن يلمسها هرعت تصعد درجات السلم لتقف تحت المدخل هربا من المطر. كانت ترتجف اضطرابا، وتحرص على ألا تكشف عن اضطرابها. قالت له وهو يقرع الباب:
"أستطيع أن أدرك سبب عدم وجود مفتاح للباب في حلقة مفاتيحك. هل الأمور هنا في الكازا تأخذ مظهر الفخامة الملكية؟"
قال مارك وهو يتأمل الباب الكبير المثبت في الجدران السميكة للبيت:
"البيوت تبنى هكذا عاليا حتى تتحمل موجات الرياح الشمالية العنيفة الباردة، وموجات الرياح الشرقية الجافة المثقلة بالغبار. ولاشك أن الأبراج أقيمت لتعطي القلاع مظهرا يشيع الرعب في قلوب القراصنة الذين ينزلون في الساحل تحتها. وقديما قالوا إن بيت الرجل هو قلعته التي توفر الحماية لعماله وأهل بيته."
وأدركت من طريقة حديثه أنه يجد سعادة وفخرا بالبيت القديم المتين البنيان الذي عاشت فيه أجيال متعاقبة من أسرته، وأحبته أشد الحب، ولهذا السبب كان يتوق الى انجاب ولد يكون وريثا لهذه القلعة.
وفي هذه اللحظة انفتح الباب، وسارت رافينا الى القاعة الكبرى حيث كان وميض البرق، يكشف دروعا عربية، وأثاثا عتيقا، ولوحات عائلية معلقة على الجدران المطلية باللون البرونزي المتوهج كقطع الخشب المشتعلة في المدفأة.
صاحت رافينا قائلة:

"نارا".

صيحة ارتياح من شخص يكابد البرد في داخل جسده وخارجه، وأسرعت لتركع فوق السجادة الصوفية، وتشابكت أصابع يديها طلبا للدفء، وطقطقت الأخشاب المشتعلة التي كانت الظاهرة الوحيدة المرحة في تلك القاعة الكبيرة، ثم سمعت صوتا يتساءل:

"إذن .. هذه هي العروس؟"

جاءت الكلمات فجأة من بين الظلال، فالتفتت رافينا واجفة القلب، ورأت شخصا يجلس في مقعد بجوار المدفأة. كان للمقعد ظهر مرتفع، والنقوش تزين مسانده وأرجله، وكان الشخص الذي يحتل المقعد امرأة عجوزا ترتدي ثوبا أسود، بينما استراحت قدماها على مسند القدمين.

استقرت عيناها على رافينا. عينان سوداوان، لا تشع الابتسامة فيهما راحتا تتأملان وجه الفتاة الشاحب، وعينيها الخضراوين وشعرها الأحمر الذي بلله المطر.

وتطلعت رافينا الى مارك، ورأت سمات الكبرياء في ملامحه وهو واقف إلى جوار المدفأة، وامتدت يده ليساعدها على النهوض فتوهج خاتمه، وألقى الضوء على ندوب وجهه، فاجفلت رافينا من لمس يده. ونهضت واقفة على قدميها دون الاستعانة به، ولم تحاول أن ترى القسوة التي ارتسمت على فمه، فقال لها:

"دعيني أقدم لك جدتي، دونا جوكاستا ليوناردي. عادة أدعوها لانونا عندما أكون هادىء المزاج."

تمتمت رافينا بالتحية التقليدية، وكانت قد تمنت أن تلتقي بجدة مارك. اذ اعتاد أن يتحدث عنها بحنان. فهو سلتي، وبينها وبينه شيء مشترك، ولو أن دونا جوكاستا تتحدث الانكليزية بطلاقة الا أنها لم تكن على مودة معها، ولا شك أنها تفكر هذه اللحظة في عروس سردينيا التي أتى بها حفيدها الى البيت منذ ست سنوات مضت.

وكان على مارك أن يبتسم، وتألقت عيناه عندما

طلب شرابا، وقال:

"إنه من الواجب احتساء نخب لهذه المناسبة السعيدة."

ونهضت دونا جوكاستا واقفة على قدميها، فجلجل ثوبها الحريري الأسود، مثل أوراق الشجر الجافة وقالت:

"هل تسمحان لي بالانصراف، لأنني أمضيت اليوم بطوله في الاشراف على إعداد غرفكم، وتنظيف البيت. أنا متعبة يا ماركوس، وسأتناول وجبة خفيفة في غرفتي قبل النوم."

قال بصوت يشوبه غضب هادىء:

"إن تناول كأس معنا لن يستغرق وقتا طويلا."

وتطلعت جدته نحوه، ثم الى رافينا، ولاحت ومضة من الحقد في عينيها عندما استقرتا على رافينا. وقالت:

"لم تتقدم السن بي كثيرا حتى أنسى أن العشاق يحبون الانفراد، وأنا واثقة من أن عروسك تفضل أن تستحوذ عليك لنفسها."

وسارت الجدة نحوه، وربتت على خده المشوه بالندوب، وجالت يدها المتألقة بالخاتم فوق صفحته لتشاهد رافينا ملامحه مرة أخرى، ورأت الجدة في عينيها نفورا من لمس مارك، لذلك قررت أن تتركها وحدها في صحبته حتى تعلم نفسها أن تكون تحت رحمة طلباته.

وأحست رافينا بالبرودة تسري في أوصالها، حتى وهي قريبة من دفء النار، حين قالت السيدة العجوز لها:

"ليلة طيبة. أرجو أن تجدي غرفتك مريحة، حجرة العروس غرفة كبيرة ولكن ولا واحدة من عرائس أسرة كورزيو كانت تشكو منها."

رافق مارك جدته حتى فسحة واسعة تقع عند أول درجات السلم بينما وقفت رافينا تتطلع الى النار. الدخان المتصاعد من الخشب، والسناج يشتعل من جديد ليتطاير عاليا مثل تطاير اليراع في جنح الظلام. وتنبهت رافينا عندما شعرت بيدي مارك فوق كتفيها، عندما انضم اليها وهي مستغرقة في هذا الجو الصامت. وقال لها:

"لا تتبرمي بما قالته لانونا انها سيدة عجوز من أهالي سردينيا، وهي غاضبة لأنني لم أتخذ زوجة من بنات جنسي."

فأهالي سردينيا متعصبون لعشيرتهم ويتصفون بالكبرياء.

قالت رافينا بصوت هادئ:

"يبدو لي يا مارك ٠٠ أن زواجك مني جلب الشقاء إلى قلوب ثلاثة أفراد!"

وأدار وجهها لمواجهته، ورحلت يده اليسرى من كتفها حتى استقرت على رسغها، وسألها:

"ما الذي يدعوك الى الظن بأنني شقي؟ بالتأكيد أنت تعرفين يا رافينا أنني أجدك فتاة جذابة، بشعرك الأحمر، وبشرتك البيضاء، وعينيك البحريتين، اما عن سحرك ٠٠"

وحدقت في وجهه، وأحست كأن قناعا أسدل على وجهها فحال دون رؤيته. فسألته:

"ألا تجعل لمشاعري حسابا لديك؟ هل أنا مجرد شيء بالنسبة اليك؟"

انفرجت شفتاه وتلألأت أسنانه وسط وجهه الأسمر المشوه بالحريق واستدار عنها وهو يقول:

"أنت إنسانة تدخل السرور الى القلب يا سيدتي، ها هو ذا رنزيو أقبل لنا بالشراب. سوف نحتسي نخبا، وسنشعر بالدفء يسري في عروقنا."

وصب الشراب من قنينة فينيسية في كأسين ثم ناولها إحداهما، وأحست ببرودة الكأس في يدها، أما الشراب فكان ذهبي اللون. ورفع مارك كأسه وقال بلهجته الايطالية:

"تحياتي."

ونظرت رافينا اليه برزانة، وقد انعقدت خصلات ملتوية عند سوالفها وقالت له ببرود:

"لم أتعود بعد على لغة أهل سردينيا."

قال:

"سأعلمك كل شيء عن أهل سردينيا."

كانت عيناه تحملان معنى "عميقا"، وهو يقرب الكأس من شفتيه، ثم أردف يقول:

"لا يمكن أن يتحقق التفاهم يا رافينا بدون نشوب معركة أو اثنتين، هذا ما يدفئني."

جالت رافينا ببصرها على الجدران، وتطلعت الى صور

الأشخاص الغريبة عنها، وأبصرت الظلال تلقيها الشمعدانات، وفسحة السلم الكبير المؤدي الى البهو، ثم عادت لتقول له:

"إن ما يدفئني حقا، مختلف تماما يا مارك، لأنني لست ممثلة كتبت لها عواطفها لكي تؤديها. أنا هنا معك ومع هذا لا أشعر بأي عاطفة."

فسألها ساخرا:

"ولا حتى الخوف."

وتحولت ببصرها من سلم الغرف العليا، الى غرفة العروس التي سوف تقاسمه النوم فيها، وقالت له:

"هناك عواطف أقوى من الخوف يا مارك."

احتسى نصف ما في الكأس، ثم قال:

"أظن أن العاطفة المخادعة أقوى من الخوف، ولكن لامبالاتك تسعدني إلى أبعد حد."

وفي لحظة أرادت أن تقول له إنها تحس باللامبالاة نحوه، ولكن هذا الشعور لم يكن صحيحا، لأنها كانت تحس بقوامه ولونه الأسمر وكبريائه كلها ممثلة في وقفته أمام المدفأة التي يضمها هذا البيت المطل على البحر، بل إنها كانت تحس بعظمته ... فقط عندما كان يشيح جانب وجهه المشوه بالندبة بعيدا عنها.

قال:

"انتهي من احتساء كأسك، حتى نتوجه الى غرفتنا. أنت في حاجة إلى إنعاش جسمك بعد هذه الرحلة الطويلة، وقبل أن نتناول طعام العشاء."

واتخذا سبيلهما الى فسحة السلم، ورأت وجود عدة غرف وممرات تؤدي إلى أجزاء مختلفة من المنزل، ولكن رافينا أحست أنها ليست سيدة القصر، وشعرت بأنها شخص غريب لا يشعر بالألفة في بيته.

قال مارك وهما يرتقيان السلم متجهين الى البهو:

"جناحنا يقع في برج الفارس."

ثم استدارا شمالا وسارا في ممر يقود الى سلم أضيق، وأحست رافينا وهي تسير الى جواره بأنه لم يقم مع دوناتا في جناح الفارس، وإنما عاشا في الجناح الآخر.

فسألته:
"ماذا تسمي البرج التوأم؟"
"برج المادونا، أطلقت عليه هذا الاسم إحدى جداتي وهي فتاة حالمة من توسكانا، وان كان أهل سردينيا لا يستسلمون لمثل هذه الخيالات الرومانتيكية. لأنهم اناس عمليون."
كانت هناك نافذة تجاور سلم البرج وتسمح بدخول ومضات البرق التي كانت تهز أعصاب رافينا، وربما كان البرق والظلال المتراقصة سببا في أن تسرع بارتقاء الدرجات حتى كادت تقع على وجهها، لكن مارك كان أسرع منها إذ مد يديه ليحفظ توازن جسمها، وفجأة التفت ذراعاه حولها، فقاومته رافينا وهي تحاول الفرار منه ... مرددة:
"لا..لا .."
لكنه أمرها قائلا:
"اهدأي، تماسكي. أليس من التقاليد المتبعة أن يحمل العريس عروسه ويعبر بها عتبة المنزل؟"
وفي خطوة طويلة حملها وعبر بها عتبة غرفة النوم حيث كانت المصابيح مضاءة، والحطب مشتعلا في المدفأة، والدفء يشيع في أرجاء الغرفة وأثاثها.
وظل مارك حاملا رافينا، ووجهها على مبعدة من شفتيه اللتين لا يبدو عليهما أية ملامح من الرحمة. قال لها:
"أنت تنظرين إلي. وكأنك تزوجت شيطانا..."
قالت:
"أنا متعبة يا مارك، وأنت دائما تعذبني."
وأسبلت جفونها كأنها لا ترغب في رؤية نظراته، ومع ذلك كانت تحس بعينيه تتمليان شعرها، وبياض بشرتها، ولأول مرة في حياتها أدركت كيف تبدو أمام رجل، وكيف جعلها تشعر بأنها مسلوبة الارادة. ولما كان هذا الرجل هو مارك، فانها كانت تود أن تنشب أظافرها في جسمه حتى يشعر بالألم. قالت له بوحشية:
"كم أكرهك، وأكره هذا المنزل، وهذه الجزيرة التي تفخر بها. أحجار مبنية على أحجار، وأنت لا تقل تحجرا عنها."
قال ساخرا:

"مجرد كلمات، هل تظنين أن مجرد كلمات تستطيع أن تجرحني؟"
قالت له:
"وهل تظن أن شيئا يمكن أن يجرح حجرا ... إلا الحجر. ولا يوجد شيء أكثر برودة من امرأة باردة."
قال:
"مجرد وعود، من شفاه ناعمة."
ثم أردف يقول:
"إنني لم أتزوج منك من أجل كلمات ناعمة أو نظرات ناعسة، أو خضوع مستأنس وإنما تزوجت منك لأنني أريد طفلا. بكل الروح والمرح الذي كان يتمتع به دريستي."
وأحست في هذه اللحظة أنه يتجرع الألم، وأن العذاب القاسي هزه حتى دفعه الى أن ينزلها من على ذراعيه، ويبعدها عنه بقوة، والقسوة تكسو وجهه المشوه بالندوب.
قال:
"أحضروا لك ماء الاستحمام."
وأشار الى أباريق نحاسية موضوعة على عتبة الحمام، ومناشف دافئة، وستارة شفافة أسدلت أمام الحمام. ثم أردف يقول:
"أسباب الراحة هنا ضئيلة إلى حد ما، ولكنك ستشعرين بالدفء قرب المدفأة، دبرت لانونا وصيفة صغيرة لخدمتك، لأن أغلب الخدم هنا من الرجال. وهذه الليلة يمكنك تدبيرها بنفسك."
قالت رافينا بهدوء:
"لا حاجة بي إلى وصيفة. أنت تعرف أنه ليس لدينا أية واحدة في رافنهول وأنني اعتدت على أن أدبر أموري بنفسي."
"أنت الآن في كازاتشيريسو، والموقف متغير. سوف أخبر رنزيو بأن يجلب فتاة صغيرة من فتيات القرية، أنت البادروتشينا ولا بد أن يكون لك وصيفة خاصة تهتم بملابسك وتصفف شعرك."
قالت له وهي تنظر إليه بنظرات متحدية:
"الا يعجبك شعري كما تراه .. يا سيدي؟"

"ستعدينه كما كان بالأمس وهو تحت طرحة الزفاف، وسوف ترتدين ثوبك المخملي الذي شاهدتك به حينما قدمت لتناول الطعام في رافنهول أول مرة، هل أحضرت الثوب معك؟"

وراودتها الرغبة في أن تخبره بأنها نسيت الثوب في انكلترا، وقبل أن تتفوه بكلمة سار مارك الى دولاب ملابسها وفتح أبوابه الكبيرة، ورأت ثيابها منسقة على المشاجب وبدا لها الثوب المخملي الذي رفعه مارك من مكانه. وأحست أن إصرار مارك على ارتداء هذا الثوب يعد تدخلا سافرا في استقلالها الشخصي، وأرادت أن تنتزع الثوب من يديه، وأن يدعها وحدها. قالت له:

"حسناً لن أرتدي الثوب."

وضع مارك الثوب على الفراش، وقال لها:

"سأكون في الغرفة المجاورة، وسأدعك وحدك حتى تستعدي لحفل العشاء الذي أعد خصيصا لزفافنا."

توارت وراء الستارة، ونضت ثيابها عنها، وراحت تستمتع بدفء الماء الساخن، الذي هدأ أعصابها المضطربة، وبعدما استحمت لفت جسمها في منشفة كبيرة، وغادرت الحمام، وسارت حتى وقفت أمام منضدة الزينة وشد انتباهها علبة من القطيفة مفتوحة، تحتوي على قلادة زمرد مزينة بسلسلة مرصعة بالماس.

سرت رعدة في بدنها وخشيت أن يكون مارك دخل الغرفة أثناء استحمامها ليضع العلبة على منضدة الزينة وشاهدها من خلال الستارة الشفافة، وكلما فكرت قليلا وجدت أن من حقه أن يأتي ويخرج من غرفة نومها كما يشاء، وأن يقدم لها حلية إعجابا. ورأت أن القلادة تتمشى مع خاتمها وثوبها المخملي، وشعرها الأحمر.

أشاحت بوجهها عن الهدية، وارتدت ثيابها بيدين باردتين كالثلج وعقدت شعرها في تصفيفة كالتاج، وسمعت مارك مرة ومرتين يسير في الغرفة المجاورة، وثارت أعصابها عندما قرع الباب يستأذن في الدخول فأذنت له ودخل وهو يرتدي ثياب السهرة، وبدا في قوامه الفارع رجلا بل سيدا للموقف.

قال:

"آه .. أنت مستعدة .. تقريبا!"

وتطلع اليها من قمة رأسها الى أخمص قدميها، فرأى بشرتها البيضاء تبرزها فتحة ثوبها المخملي، وشعرها الأحمر الذي يزين رأسها، وعينيها الخضراوين.

وأحست رافينا بإغماءة خفيفة عندما رأت ومضة اعجاب في نظراته.

تقدم مارك والتقط القلادة من علبتها المخملية، واستدار حتى وقف خلفها وقال:

"دعيني أثبت القلادة حول عنقك."

وتطلع الى المرآة، وسلط بصره على نظراتها، وأردف يقول:

"تعجبك القلادة يا رافينا، أليس كذلك؟"

قالت بصوت بارد:

"إنها رائعة للغاية. إنها جزء من ميراث العائلة وأنا أخذته. أليس كذلك؟"

فقال لها:

"أنت أخذته لأنني أعطيته لك. هناك قرط يتمشى معها، ولكنك في الوقت الحاضر صغيرة على ارتدائه. أذناك صغيرتان، وهما جميلتان في حد ذاتهما، ويجب ألا نفسد جمالهما بأقراط ذهبية ثقيلة. أنت فاتنة وكل عرائس أسرة دي كورزيو ترسم لهن صور زيتية في السنة الأولى من الزفاف، وسوف أستدعي الرسام ستيليو فابريزي ليرسم لك صورة."

لم تجد رافينا أي جدوى في المعارضة، ولو قدر لها أن تعيش في سردينيا لتمنت أن تفجر الصخور التي يقوم عليها القصر، والبحر الذي يقع تحته، وفي هذه اللحظة راودتها الرغبة في أن تسبح، ولكن خالجها شعور بالبكاء، وهي تتقدم مارك، وتخلف وراءها غرفة نوم الزفاف.

* * * *

أعدت مائدة العشاء وصفت عليها أطباق لحم السمان، والفاكهة وكؤوس الشراب. وفي وسطها وضعت الزهور، وعلى ضوء الشموع أقبلت رافينا على تناول الطعام بشراهة، ولم ترفض كأسا ثانية قدمها لها مارك بعثت الدفء في جسدها، وأصابت عقلها بخمول، وكان ذلك مقبولا مع الغربة التي تحيط بها.

تحدث مارك اليها عن الجزيرة وتاريخها حتى تركا المائدة، وتوجها للجلوس بالقرب من المدفأة، وجلس مارك على أريكة كبيرة بينما راحت رافينا تصب له فنجان قهوة.

قال لها:

"الأمسيات بدأت تميل الى البرودة."

ناولته فنجان القهوة وهي تتجنب لقاء نظراته، وقالت له:

"أحب النار، إنها تجعل الغرفة تبدو في صورة بهيجة."

قال بالايطالية:

"حسنا."

وشعرت بنظراته تحدق فيها وهي تجلس على مقعد بمساند، اللون الأحمر المتوهج يشابه لون الأريكة. سألها:

"هل تبعث هذه الغرفة على البهجة؟"

وتطلعت حولها، وشاهدت الشموع ما زالت مشتعلة، ورأت لوحة جص في السقف تصور عاشقين من العصور الوسطى تشابكت أيديهما، والحوريات ترقص مع الاغريق. كانت الغرفة تتسم بالوثنية، مثل الرجل الذي يراقبها برأسه الأسود الذي أسنده على ظهر الأريكة الحمراء. قالت:

"لا بد أننا نعيش في قرن آخر غير هذا القرن، كأن الزمن توقف هنا في كازاتشيريسو، وأن أيام الثأر والمبارزات وصيد الصقور ما زالت تعيش بيننا."

"هل يضايقك ذلك؟ ربما تمتين بصلة لتلك الأيام. لديك سمة العصور الوسطى التي قيل أنها تعود تحيا على بعض الوجوه. إنها سمة من الحزن والكآبة."

سألته:

"هل لي أن أبتسم يا مارك؟"

وبينما كانت رافينا تسأله، التقت بعينيه الحالكتين في السواد. كان وثنيا حتى بات لا يكترث كثيرا بمشاعر عروسه. نزعة الثأر بدأت تموج في أعماقه ولن يسلم شرفه حتى يدفع برينين ثمن موت دريستي، ويطفىء لهيب الألم الذي يحرق قلبه.

وتحولت نظراتها الى النار، واللهب الذي راح يسري في أطراف الحطب وفكرت أن الهرب من مارك كان في متناول يدها، اذ كتب لها رودري ذات مرة رسالة بعث بها من استراليا، متوسلا اليها والى أبيها أن يلحقا به هناك، لأنه أصبح يفتقدهما كثيرا، ولكن نيوسوث ويلز كانت تبدو لها نهاية العالم، وأن الرحلة منهكة لجاردي.

سألها مارك:

"هل أنت قلقة على جاردي؟"

انتابها توتر مفاجىء. أليس غريبا ان مارك يقرأ أفكارها.

أجابت بصوت يشوبه الألم:

"أنا .. أنا افتقدته."

"هذا شيء طبيعي."

"أوه ... مارك."

وأحست كأن سكينا يغوص في قلبها، وأردفت تقول:

"هل تهمك مشاعري، وهل يقلقك أنني أشعر بالأسى لبعادي عنه. إن عزائي الوحيد هو وجود رودري معه."

وخيم صمت مطبق عقب أن تفوهت بكلماتها، وتطلعت الى مارك ورأت في عينيه تطاير الشرر، فقال:

"اذن رودري برينين موجود في رافنهول. إنه برينين الذي توجهت إليه لمقابلته عقب زواجنا مباشرة. وكان يجب عليك رؤيته! كان من المحتم عليك تحذيره لكي يكون بعيدا عن طريقي."

قالت بيأس:

"أجل، أرسل برقية وكان لزاما علي أن أراه. كنت خائفة للغاية."

سألها:

"خائفة على عنقه الثمين؟"

كانت عيناه تتألقان بوميض يجذبها إليهما ويغرقها في بحرهما، فقفزت واقفة على قدميها، وفي قفزتها اقتربت حافة ثوبها من لهيب النار، وتعلق لسان من ألسنة النار بالحافة، وعندما أدركت الخطر الداهم، أطلقت صرخة ووجدت الماء ينسكب من دورق زجاجي وأحست بيدين تمسكان بها وترفعانها بعيدا عن النار.

قال مارك:

"أيتها الحمقاء الصغيرة!"

ولاح امتقاع لون وجهه تحت جلده المحترق، فبدت الندبات جلية واضحة، وأردف يقول:

"هل أعماك رودري بريتين حتى أصبحت لا ترين شيئا أبدا."

وراحت يداه تعالجان الكدمات التي لحقت بها، وكانت تنورة ثوبها المخملي بللها الماء، وأصبح غير صالح للارتداء. وانتابتها رجفة، فاغرورقت عيناها بالدموع، من الخوف والرعب اللذين اجتاحاها حتى أنها لم تعد ترى سوى الجانب المحترق من وجهه، والجحيم الذي ضاقت به ذرعا. قالت معارضة لا مدافعة:

"لا"

وكانت صرخة أطلقتها ضد الألم الذي قتل شعور الرقة فيه، وكل اتزان في نفسه، وتركها ترحل عنه، وأدار وجهه بعيدا عنها وقال لها:

"خير لك أن تتوجهي الى الدور العلوي، لتستبدلي ملابسك المبتلة، وسألحق بك بعد فترة."

تركته واتخذت سبيلها عبر الصالة، وارتقت الدرجات، وارتجفت بردا عندما لمست أصابعها ثوبها المبتل الذي شوهه الحريق. فلن يكون في وسع مارك أن يدع الرسام يمسك فرشاته ليرسمها وهي مرتدية هذا الثوب المشوه، إنه سيجف حقا ... ولكن الحروق أفسدته.

وشعرت بارتياح حينما وصلت غرفتها في البرج، وخلعت الثوب. وكانت أغطية الفراش مطوية، وعليها ملابس النوم، فارتدت ثيابها على ضوء المصباح، والنار المشتعلة في

المدفأة، ثم جلست فوق مقعد مستدير وراحت تتأمل الوهج الأخير للنار.

كانت هذه هي ليلة زفافها.. ولا جدوى أن تسأل مارك امهالها حتى تعتاد عليه، وعلى بيته، أجفلت عندما سمعته يدخل الغرفة المجاورة. مع مرور الثواني ازداد قلقها، وراحت تعبث بخاتم زواجها الذهبي الذي أحست به ثقيلا في أصبعها، وسمعت سقوط مفتاح على المنضدة، وحرير السرير الذي نم عن جلوس مارك على حافته ليخلع حذاءه.

لم تستطع رافينا أن تبارح مقعدها حينما فتح باب الغرفة المجاورة فجأة ووجدته ماثلا أمام عينيها في روبه الحريري الأسود، وراحت تحدق فيه بعينيها الواسعتين وقد استحال وجهها الى صفرة أشبه بصفرة ثوبها.

قال لها بينما كان شعرها الأحمر ينسدل مسترخيا على كتفيها:

"يجب ألا تجلسي هكذا، فالنار ذوت تقريبا. اقفزي الى فراشك."

ولكن رافينا لم تستطع التحرك من مكانها، وبدت الغرفة يثقلها ظله حينما أقبل عليها، ورفعها من فوق المقعد، وحملها الى السرير ووضعها على الفراش واقترب بوجهه منها، ورأت الغضب ما زال يتطاير من عينيه.

أصبح يعرف الآن أنها كانت بصحبة رودري حينما اختفت من قاعة الاستقبال يوم زفافها، وإنه لن يغفر لها ما فعلته.

قال لها وهو يجدل خصلات شعرها الأحمر حول عنقها:

"أيتها الساحرة الصغيرة."

انتابتها رجفة لم تستطع السيطرة عليها، لأن رودري وحده كان دائما يناديها بعبارة الساحرة الصغيرة، فأغمضت عينيها حتى لا ترى وجه مارك المعذب في ضوء المصباح. قالت له صائحة:

"أطفئ المصباح.. أطفئ المصباح!"

وخيم الصمت.. وسمعت صوت فرقعة. ولم يكن صوت إطفاء المصباح، وانما كان صوت مزلاج الباب الذي أغلقه مارك بعد مغادرته غرفة النوم، اذ تركها

وحدها، بينما كانت خصلة الشعر ما زالت مجدولة حول عنقها والدموع تنهمر على وجنتيها ·

* * * *

٣- رجل لا كالرجال

أخيرا نامت رافينا بعد ليلة حالكة وسهاد طويل· وعندما استيقظت في الصباح كانت الشمس تتسلل الى غرفة نومها تحمل معها الدفء وشذى الأعشاب ونسمة البحر· ظلت في فراش العرس تتأمل الغرفة، ووقع بصرها على المقعد المستدير قرب المدفأة، فتذكرت أنها جلست عليه بانتظار مارك، وحملها كالطفل في ذراعيه، وربما لسلوكها الطفولي معه، تركها ولم يلمسها· فنشجت بالبكاء، ونامت وحدها في غرفة الزفاف·

غادرت الفراش لتجد دلوا نحاسيا مملوءا بالماء الدافيء، واستمتعت بحمام أعاد الانتعاش اليها، ثم فتحت خزانة ملابسها وأحست برغبة تحدوها أن تتمتع بالحرية والانطلاق خلال يومها، فاختارت بلوزة ملونة وسروالا فضفاضا، ومشطت شعرها وأرسلته على ظهرها، ووضعت لمسة من أحمر الخدود لتخفي معالم شحوب وجهها الذي نجم عن التوتر الذي كابدته خلال أول ليلة أمضتها في كازاسبيريسو· وعندما اتخذت طريقها للخروج من الغرفة، وشرعت تهبط درجات السلم الحلزوني للبرج، شعرت بالجوع ينشب أظافره في معدتها ·

ولم تجد أية إشارة تنم عن وجود مارك، افترضت أنه يقوم بجولة تفقدية على البساتين وحقول الكروم التي تحيط بالكازا· وبدأت رافينا تتساءل اذا كان البيت هجره أهله، عندما رأت رينزيو يعبر الصالة في سترته البيضاء، ثم قال لها بالايطالية وهو يحدق في سروالها الفضفاض:

"صباح الخير يا بادرونسيتا."
قالت له بالانكليزية:
"أحب أن أتناول طعام الافطار يا رينزيو."
وكانت تعلم أنه يفهم الانكليزية لأن مارك أخبرها أثناء تناول طعام العشاء بأن رينزيو كان يعمل في فنادق اوروبا.
قال:
"البادرون لم يعد بعد من جولته الصباحية، وعلى البادرونسيتا أن تنتظره، لتنضم اليه في الشرفة المطلة على البحر حيث اعتاد تناول طعام افطاره."
بدت رغبة شفافة في نظراتها وهي تسأله:
"الشرفة المطلة على البحر؟ انني لم أرها .. هل تقودني اليها؟"
وانحنى رينزيو، واخترقا الصالة، ثم سارا في ممر ضيق، وعبرا مدخلا يؤدي الى الشرفة التي امتلأت بأشعة الشمس، والمفعمة بهواء البحر وكانت الشرفة تبرز الى الأمام لتطل على البحر مباشرة، ومحاطة بسياج من القضبان الحديدية تأمينا لسلامة الواقفين.
وتمتم رينزيو قائلا:
"البادرونسيتا سوف تنتظر وصول طعام الافطار."
قالت:
"أجل."
وسارت الى نهاية الشرفة، مأخوذة بمنظر الجبال، والأمواج تتكسر فوق الصخور التي تجمعت على الشاطىء كأنها أطلال قلاع محطمة وشاهدت النسور ترفرف فوق صفحة المياه، أدهشها أن يحب مارك تناول طعام إفطاره في مثل هذا المكان. هذا الملك الذي يتمتع بمشاهدة هذه المناظر الطبيعية، وسيد هذا البيت الكبير القائم على المعقل الصخري.
... ها هنا ملأت المرارة فمه، فقسا قلبه بعد موت ابنه دريستي وخاصة أنه يملك كل هذه القرى. بلا ابن يرثها.
وقفت رافينا عند سور الشرفة، والريح تعبث

بشعرها، وعلى سماتها ملامح العروس الأسيرة، وكانت تعلم أن مارك سوف ينضم اليها حالا، فتوترت أعصابها من مقابلته بعد الموقف الدرامي الذي شاب فراقهما ليلة أمس، وأنذرتها أعصابها بدنو وصوله قبل أن تسمع وقع خطواته فوق أرضية الشرفة.
امتلأ الجو بشحنة كهربائية استطاعت أن تشعر بها وهي تسري في عمودها الفقري الذي تجمد عندما وقف وراءها وهو يقول:
"صباح الخير. أظن أنه لم يستغرق منك وقت طويل حتى تعثري على وكري، أخبريني كيف ترين الآن الكازا والبقاع المحيطة بها بعدما أشرقت عليها شمس الصباح."
قالت:
"أكثر وثنية مما كنت أتصور."
وشعرت بضربات نبضها عندما تحولت لمواجهته، ووجدته يتأمل الشمس وهي تسقط بأشعتها على شعرها، وكانت تتوقع أن تلاقي منه برودا هادئا ومقاطعة مهذبة بعد ما حدث ليلة أمس، ولكنه ابتسم ورفع حاجبا متعجبا للملاحظة التي أبدتها، وسأل:
"هل ترينه وكر قاطع طريق يحتفظ بك رهينة انتظارا لفدية يدفعها أهلك لانقاذك؟"
وتناول يدها التي تتحلى أصابعها بخواتمه، وأحنى رأسه الأسود ومست شفتاه يدها، فاشتمت رائحة ثمار الليمون عالقة بثيابه. كان يقوم بجولة في حقول الليمون التي نضجت وغدت معدة للعصر وتعبئة عصيرها في مصانع الموالح التي تقع على مبعدة من الجزيرة، ذلك أن دي كورزيو ماركة مميزة على جميع المشروبات المماثلة. وتتمثل الماركة بصورة نمر جاثم فوق صخرة يلعق الماء من نهر متدفق.
سألها:
"هل استمتعت بنوم عميق؟"
وفي صوته نبرة سخرية. لم تستطع أن تتطلع الى نظراته وهي تجيب على سؤاله بأنها نامت نوما عميقا. قال:
"حسنا."

وتحول عنها؛ عندما ظهر رينزيو في الشرفة وهو يحمل صينية عليها الوان من الطعام، ويتبعه خادم صغير السن يحمل دورق القهوة. وراح الخادم الصغير ينظر الى شعر رافينا الذهبي،لأنه اعتاد أن يرى فتيات كاسيل ديل توري بشعر حالك السواد، واضطر رينزيو الى أن يزجره فانصرف خائفا وشعرت بأن الخادم المذعور بعث في أعماقها بمزيد من الغربة عن ذي قبل. وقام رينزيو باعداد مقعد أمام المائدة جلست عليه رافينا فقال له مارك:

"يمكننا أن ندبر أمر افطارنا بأنفسنا".

قالت له:

"يبدو سلوكك غريبا معهم".

وراحت تراقبه وهو يصب لها القهوة، ويقدم لها طبقا من حلوى التروفيل وشريحة من الخبز المقدد.

واستطردت تقول:

"انهم غرباء نسبة الي. إنك لا تتصور ماهية شعوري يا مارك. نصف حالمة لا أكاد أتصور أن هذا المكان واقع حقيقي. وأن زواجنا تم فعلا".

قال لها:

"تناولي طعامك يا رافينا. ان التروفيل مثل الحب. يفقد شيئا من نكهته عندما يصبح باردا".

وكانت رافينا تشعر دائما بقبضة تعتصر قلبها اذا ما بدأ يتحدث عن الحب. ماذا يقصد بالحب؟ أن يمسك بها بين ذراعيه، يمتلكها دون أن يشعر بأية حرارة مما كان يشعر به نحو دوناتا ... فتاة الجنوب التي فقدها كما فقد دريستي.

كسرت رافينا الخبز، ودهنته بالزبدة، ووجدت التروفيل حلو المذاق واللحم لذيذا، وحاولت ألا تفكر في طعام الافطار الذي اعتادت أن تتناوله في صحبة جاردي، وقريبا من جبال ويلز المعروفة، ومن وراء نوافذ رافنهول.

سألته:

"هل تتناول جدتك طعام الافطار في غرفتها؟"

"أجل .. لانونا بدأت تشعر بسنها المتقدم، وغالبا ما تمضي الليل تكابد الأرق فينتابها الاعياء عند الصباح، وقد اعتادت وصيفتها بابتستا أن تقرأ لها اذا جافاها النوم. ستجدين القوة في شخصية الساردي فلا يلتبس عليك الأمر فتظنين أنهم يفتقدون الحنان. وحينما تعتاد لانونا عليك وتتقبل حقيقة كونك زوجتي، ستكتشفين أنها أقل تهكما عما حدث حينما التقيت بها يوم مجيئك".

لم تستطع رافينا أن تمنع نفسها من سؤاله:

"هل هناك علاقة بين كون المرء سرديا، وبين كلمة ساردونيك (٣)؟"

"هل تظنين أنني شخص متهكم مرير؟"

قالت:

"بالتأكيد أن زواجنا أكبر دليل على مرارتك".

"إذن أنا شخص مرير .. وأنت تشعرين بأنك ضحية لمرارتي!"

"أعرف أنه شيء فظيع بالنسبة اليك أن تجتاز هذا الشعور، ولكنه دفعك الى أن تكون قاسيا! وانه لقسوة منك يا مارك أن تتوقع أن يكون سلوكي ينم عن رغبة في أنني "أريد" أن أكون هنا، وما المسألة الا مجرد وقت أعد فيه نفسي كزوجة للتكيف على حب زوجها".

قال:

"لا أطلب أن تمنحيني حبك".

فسألته:

"لكنني أسأل عن نفسي أنا .. وماذا أريد؟"

"اذا كنت تريدين رودري برينين، فأظن أنه خير لك أن تبقي معي".

وكانت كلماته باترة كحد السكين التي كان يستخدمها في قطع شريحة بطيخ مفعمة بالعصير. سألها:

"هل تحبين أن تتناولي شريحة منها؟ ان بطيخ الجزيرة حلو المذاق".

هزت رأسها وقد تشبثت أصابعها بحافة المائدة عندما رأته يضيف السكر الى شريحة البطيخ،وراح يلتهم الثمرة،

بهدوء يبعث على الجنون ورأت أن اهتمامه به كامرأة لا يزيد عن اهتمامه بشريحة البطيخ. سألته:

"هل تأذن لي بالانصراف؟"

وأمسكت بمنشفتها وألقتها على جانب طبقها، وشعرت بنظراته مسلطة عليها عندما تركت المائدة، وتوجهت نحو جدار الشرفة، ووقفت تحدق في الجبال التي لمستها أشعة الشمس الذهبية، ولقي الجمال الوثني للمنظر صدى لشعورها بالشقاء، ورأت أن هذا المكان يجب الا يكون مضيئا، وإنما يجب أن يكتنفه الظلام الدامس حتى يتلاءم مع حالة اليأس التي تكابدها.

سألها مارك:

"هل تذكرك جبالنا بويلز؟"

"لا شيء هنا يذكرني بوطني."

"أنت تحملين في نبرة صوتك برودة ويلز!"

قالت:

"وفي قلبي أيضا .. يا مارك."

واستدارت لتتخذ وضع المدافع، ثم أردفت تقول:

"الا يكفي أنك حصلت علي، لا تطلب أن أحب سجنك."

"يبدو لي كأنك تزمعين الثورة ضد الجزيرة .. وضدي أنا."

نهض واقفا، وسار نحوها مثل النمر المتحفز للوثوب، وحينما دنا منها، رأت بوضوح الندوب محفورة على يديه فتذرعت بالصبر لكي تتحمل لمساته حينما أدار ذقنها، وأجبرها أن تنظر الى عينيه قائلا:

"هل تظنين أنني تزوجتك لمجرد شعوري بالمرارة فقط؟ هناك شيء أكثر من هذا يا رافينا."

قالت:

"الرغبة."

وشاب كلمتها .. احساس بالكراهية له.

قال وعلى شفتيه ابتسامة متهكمة:

"أجل .. بعض من هذا، بالاضافة الى أنني اكتشفت أنك مثيرة، مزيج من البراءة والخداع. أنت وحدك يا رافينا لديك القدرة أن تجعلي أعصابي تفلت مني

أو أسيطر عليها بسرعة. لديك روح عالية وأنا لا أحب تحطيم أي روح عالية."

"ولهذا السبب لا تحمل في يدك سوطا . لأنك في غنى عنه؟"

"الشخص الضعيف فقط يحتاج أن يمسك سوطا ليروض امرأة أو حصانا."

"إذن أنت تنوي ترويضي؟"

هز رأسه، وراح يدفع خصلة من شعره الى الوراء بعيدا عن حاجبيه ثم قال:

"لا .. عندما نمتطي سويا جوادينا، ربما ستعثرين على جواب لسؤالك وعندما نكون سويا على صفحة الماء، وفي خضم العاصفة ستعرفينني أكثر. لست أحب الأشياء التي تروض. إنني سردي! أحب بربرية شمسنا في أوج الصيف وقوة الريح عندما تهب من الجبال، ولسعات أشجار السرو، ولطمات أمواج البحر، وسقوط حبات الزيتون تحت أشجارها. أنا سردي يا عزيزتي! إننا لا نقبل أية تسوية للأمور مذلة، ولا نقبل ترويضا لاخضاع المرأة."

وعندما نظرت اليه عرفت السبب الذي دفعه الى أن يتركها ليلة أمس فان الخوف الذي تملكها ليلة أمس لم يجذبها اليه، فالرجل يحب من المرأة أن تتحول دموعها الى ابتسامة، وتشعره بأنها في حاجة اليه.

فقالت فجأة:

"دعني أرحل يا مارك."

وتطلع اليها بابتسامة لوت شفتيه، وأبعد يديه عن يديها، واستند على سور الشرفة الذي يحول دون سقوط المرء الى أعماق البحر. واستطردت تقول:

"دعني أرحل الى وطني، أعني حررني من هذا الزواج."

"هنا وطنك."

"يمكننا .. يمكننا أن نفسخ هذا الزواج .. يا مارك ..."

وتحول ببصره ليحدق في أمواج البحر الثائرة، وبدا جانب وجهه المشوه مثل الحفر على وجه عملة برونزية، وقال:

"تطلبين شيئا لا أستطيع أن أمنحك إياه. اطلبي ملابس .. حلى .. حديقة تزرعينها بالورد.. حصانا لنفسك وفتيات

يسعدهن التعرف اليك. لا ابخل بأي شيء. ولكن في حدود المعقول.»

«هل يعتبر فسخ الزواج شيئا بعيدا عن المعقول .. إننا لم ..

قال مقاطعا حديثها:

«سيحدث يا رافينا، فقط إنني لم أستعد شيئا مما قلته لك يوم أن أتيت الى رافنهول، وأخبرتك عن دريستي. سأمنحك كل شيء يمكن لرجل أن يقدمه لفتاة. فقط امنحيني طفلا منك أنت يا رافينا. بكبريائك وعينيك الجميلتين. وولائك لأسرة برينين..»

«الولاء! الولاء!» كانت الأمواج تردد الكلمة في عقل رافينا، وطيور البحر تصرخ عالياً، وكان مارك وحده يرددها وهي تشعر أمامها بالعجز يشل سكناتها.

قالت:

«الطفل يولد من الحب .. كما ولد دريستي..»

نظر اليها بخشونة فبدت ندوبه أكثر غورا عن ذي قبل وقال:

«لن نتحدث عن دريستي، ولكني أريد أن أريك بعضاً من ضيعتي. الشمس حارة، ومن الأفضل أن أعثر لك على قبعة..»

وعثر مارك على قبعة قش في كهفه وهو غرفة فيها كل أسباب الاسترخاء، والهدوء. ثبتت رافينا القبعة فوق رأسها دون الاستعانة بمرآة وسوت شعرها تحتها، وجعلت حافتها تظلل عينيها.

«أنت لست مغرورة بمظهرك..»

«الغرور كالخوخ سهل الخدش، وفي أي حال أنا لست فاتنة..»

قال مارك:

«أنا سعيد بذلك. إن أي رجل يعيش في أعماقه شيطان الغيرة لا يستطيع أن يحتمل مغازلة أحد لزوجته. تعالي، دعيني أريك حدائق الليمون..»

وفتح بابا يفضي الى الحدائق التي امتلأت بأشجار الليمون، حيث راح عدد كبير من الرجال يتفحصون الثمار، وتمهل مارك ليتحدث معهم وليقدم اليهم عروسه.

وادركت رافينا أنه يبغي بذلك أن يوطد أواصر زواجه، فاصبحت في نظرهم امرأة البادرون وأي تفكير في فسخ الزواج، يقلل من قدر سيدهم ومكانته عندهم. وتذكرت أنه قال لها في استعلاء وكبرياء:

«أنا سردي.»

وبدأت رافينا تدرك تماما أن الكبرياء والكرامة تعنيان الشيء الكثير لدى أهالي سرديفيا...

سردينيا حيث تنمو أشجار الزيتون بين صخورها، والشمس تغرق التراب بأشعتها، وقوة الأرض تكسو وجوه ناسها، ورائحة الأعشاب وأشجار السرو تملأ التلال التي انتشرت فوقها حدائق الزيتون.

كانت القرية تقع على قمة التل، وأبواب المنازل والنوافذ ضيقة، وسطوحها تميل في انحدار واحد، والحوانيت أشبه بالكهوف تنبعث منها رائحة أكياس الحبوب والأعشاب، وقامت رافينا بجولة في القرية فشاهدت الكنيسة العتيقة ورأت النافورة التي تتوسط الميدان، وكانت النساء اعتدن تعبئة جرارهن منها، حتى تمديد أنابيب الماء من الجبال الى البيوت. وأدركت رافينا أن مارك بذل جهده لتوصيل الماء الى بيوت القرية، ولمحت بعض النسوة جالسات أمام الأبواب يعملن في مغازل صغيرة، كل واحدة منهن تنحني برأسها للبادرون، بينما تحدق في قوام رافينا النحيل وسروالها الفضفاض.

ورؤية هؤلاء النسوة ذكرتها بدونا جوكاستا التي كانت تأمل أن يتخذ مارك عروسا من بنات جنسه. ولم تستطع رافينا أن تقاوم رغبتها في أن تتطلع الى داخل البيوت فرأت الدجاج يمرح في الفناء، والأثاث العاري من كل زينة، وأكوام البصل والسجق معلقة في السقوف.. الصمت مخيم لأن الأطفال كانوا يتلقون العلم في مدرسة القرية، وعندما مرا ببابها قال مارك:

«المعلم السنيور لاندولفو يتناول أحيانا طعام الغذاء في الكازا.»

وفي هذه اللحظة خرجت طفلة من المدرسة تبحث عن شيء

فقدته على الأرض، وفجأة انحنى مارك ليلتقط منديلا سقط بالقرب من الباب، وتحدث معها وهو يقدمه لها، ولكنها ولت هاربة حين رأت وجهه المشوه ورأته رافينا يسحق المنديل في قبضة يده، ثم وضعه على قمة عمود الباب، وواصلا سيرهما . قالت رافينا بسرعة:

"لا تأبه يا مارك."

ولأول مرة أدركت مدى الجرح الذي أصابه عندما فزعت الطفلة من رؤية الندبة الغائرة في وجهه، وولت منه هاربة، ولمست ذراعه ولكنه سحبها بعيدا عنها ليس غضبا، وانما كنوع من الشعور بالاستقلال.

قال:

"ليست هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها النظرة الخاصة في العيون. تعالي، إن هذه الدرجات الضيقة ستقودنا الى الممر المؤدي الى الكازا."

اشتدت حرارة الشمس، ولمحت رافينا منظر البحر، وودت لو تسأل مارك أن يتوجها الى الشاطىء، فيرطبا أقدامهما في مياه البحر، لكن صمته بعث القشعريرة في أوصالها، وشعرت بالسعادة عندما بلغت أخيرا جدار فناء الكازا وأخبرها أن هناك بعض الأوراق تنتظره في مكتبه ويريد انجازها . ألقى نظرة على ساعة يده وقال:

"يمكنك تسلية نفسك بأي شيء، أو ربما تحبين التحدث الى جدتي فهي في هذه الساعة تتناول قهوتها في صالونها، واظن أنك تشعرين بالجفاف في حلقك بعد رياضة المشي تحت أشعة الشمس."

وأدركت رافينا أنها لا بد أن تعقد صداقتها مع لانونا ان آجلا أو عاجلا، فوافقت على اقتراحه بتناول فنجان من القهوة معها، وقالت له وهو يسير نحو المكتبة:

"هل تنوي احتساء قهوتك .. وحدك؟"

فالتفت نحوها، وهو يضع يده فوق مقبض باب مكتبته، ثم قال لها:

"إن ما لا أبتغيه منك هو الشفقة."

وفتح الباب ودلف الى المكتبة وحده ..

نزعت رافينا قبعتها، وسوت شعرها، ودخلت الصالون وكانت دونا جوكاستا جالسة تحتسي قهوتها، وتدخن سيكارا رفيعا، ولم تستطع رافينا أن تمنع نفسها من التطلع الى السيكار وهي تقول:

"هل أستطيع الانضمام اليك؟"

ألقت لانونا رماد السيكار، وهي تقول:

"يوجد فنجان اضافي لماركوس، أين هو الآن؟"

"لديه أعمال يريد انجازها في المكتبة."

"كنت أظن أنك شغلته لتستمتعي برؤية القرية. تعالي واسكبي قهوتك، لا تقفي هكذا، نصف جسمك داخل الغرفة ونصفك الآخر خارجها."

أجابت رافينا بلهجة من يدافع عن نفسه:

"أرادني مارك أن أزور القلعة."

وسحبت العجوز نفسا من سيكارها بشكل ساخر وقالت:

"ألم يقل لك أيضا أن تحاولي مصادقتي؟"

ثم أضافت:

"أنت بحاجة الى ما هو أكثر من عينين خضراوين لذلك."

وتحرك اندهاش عميق في داخل رافينا حينما تبين لها انها و مارك على علاقة وطيدة وأنها لا تعلم كم هي جزء من مأساة مقتل دريستي وتشوه حفيدها.

ارتجفت يد رافينا قليلا وهي تسكب القهوة وسرت حين جلست في الكرسي المريح لأن الأعصاب خانت قدميها. لم تكن الدونا جوكاستا تقبلها لأنها ليست من الجزيرة فكم سيكون كرهها لها أعمق لو عرفت سبب اختيارها عروسا لمارك.

سألتها العجوز:

"هل أعجبك شيء في بلدنا؟"

قالت رافينا وهي ترتشف القهوة:

"أنا اعتدت أن أكون بنت قرية، ولذا استمتعت بالتجول في القرية ووجدتها مثيرة للغاية."

قالت الجدة بتحامل:

"أنت تتحدثين وكأنك تقومين بزيارة سريعة لها. يجب

أن تعتبري كاسيل ديل توري من الآن فصاعدا بيتك. هنا ستعيشين حيث تسلط الشمس أشعتها على جدران الكازا، والرياح الشرقية الحارة تهب ساخنة وجافة وتدفع الأعصاب الى التوتر، وعندما يأتي الشتاء تهطل الأمطار، فتتعرض الطرقات للمخاطر ولكنها لا تحول دون سفر مارك وحده، فهو اعتاد على الا يصحب زوجته معه في مثل هذه الأحوال الجوية، حتى لا تصبح الكازا سيبريسو تنعي الوحدة عندما يرحل في رحلات عمل."

قالت رافينا بيأس:

"أنا .. أنا سوف أرحل معه. عندما يسافر الى بريطانيا سوف يأخذني معه. إن أهلي يعيشون هناك."

"أهل سردينيا يؤمنون بأن مكان المرأة بيتها."

"مارك لن يتوقع مني أن أخضع لهذه القاعدة."

وسحبت دونا جوكاستا نفسا عميقا من سيكارها وقالت:

"وماذا تعرفين أنت عن مارك بعد بضعة أيام من زواجك منه؟ أنا تعهدته بنفسي منذ وفاة أمه عند ولادته. ورأيته يشب حتى أصبح رجلا. هذا الرجل الذي لا تعرفينه .. الرجل الذي كان قبل الحادث، تتهافت عليه كل فتيات القرية. وكان في وسعه أن يختار أجملهن .. ذات العطر الفواح .. والمزاج الحلو."

وتطلعت البادرونا العجوز مليا في وجه رافينا، ثم أشارت الى خزانة خشبية تستند الى الحائط، وقالت لها:

"اذهبي وافتحي الدرج الثاني وستجدين في داخله اطار صور من الجلد، أحضريه لي."

وامتثلت رافينا لطلبها، فتوجهت الى الخزانة، وفتحت الدرج الثاني وشاهدت اطارا جلديا من النوع الذي يضم صورتين فأحضرته لدونا جوكاستا التي قالت:

"افتحيه، وشاهدي الصور."

واطاعت رافينا بينما قلبها يخفق خفقات سريعة، وكما توقعت كان الاطار يضم صورتين احداهما صورة لعروسين، والأخرى صورة شخصية لمارك فتطلعت اليها ورأت وجه

شاب نحيل شديد الجاذبية، عيناه السوداوان تضحكان ويملأهما الفرح والرغبة في الحياة، وفمه جسور، ينعطف حادا مما يتوافق مع حاجبه الأيسر. كانت هذه هي ملامح صورته منذ ستة أعوام، أما الصورة الأخرى لمارك فلم تكن معروفة لها. وهي صورة زواجه بفتاة مشرقة ترتدي طرحة تحيط بشعرها الأسود وعينيها المخملتين.

وسألتها دونا جوكاستا:

"هل تعرفين أن زوجة حفيدي الأولى كانت بهذه الصورة الجميلة ولها لوحة زيتية في برج المادونا، تصوري روعة جمالها حينما كانت هي و مارك في أوج سعادتهما. يجب أن تذهبي لمشاهدتها. دوناتا كانت حقا هدية من السماء لرجل مثل حفيدي. وعندما استعادتها السماء أخذت معها معظم قلبه. وعندما مات طفلهما أدرك مارك أنه لن يحب مرة أخرى، بالرغم من أنه كان من المحتم عليه أن يعيش مرة ثانية."

وأطفأت دونا جوكاستا سيكارها في مطفأة نحاسية، وكانت طريقة اطفاء السيكار لها دلالتها الواضحة، وكأنها تريد أن تؤكد لها بأن الحب لن يستطيع أن يندلع مرة أخرى في قلب مارك.

قالت الجدة:

"من فضلك ارجعي اطار الصور الى الدرج ثانية. إنها ذكرى مؤلمة لمارك، ولذلك أحتفظ به سرا."

وأطاعتها رافينا طاعة عمياء، ولكن الوجوه التي رأتها في الصور راحت تجول في أعماق عقلها، ويطاردها شبح سعادتهما، وعندما عادت وواجهت لاتونا قالت لها:

"ارجو أن نكون أصدقاء، أما اذا أصررت على معاملتي كانسان غريب.."

قاطعتها الجدة قائلة بوضوح:

"انت فعلا غريبة. دخلت المنزل ليلة الأمس وكأنك أتيت ضد رغبتك، هل كنت تأملين أن يعيش حفيدي معك في بريطانيا."

وأطلقت الجدة ضحكة ازدراء ثم واصلت حديثها:

"أنت تزوجت من سبردي، وجذوره ضاربة في هذه الأرض، وأرضه هي حياته. وتزوج ثانية مثلما يفعل عندما يزرع أرضه من جديد بعد موسم الحصاد، إنه يريد ابنا له."

وأشاحت رافينا بوجهها عندما أحست بالعداوة في عيني الجدة التي راحت تتفحص قوامها النحيل، وقالت لها:

"مارك أحمق. إن أي فتاة في الجزيرة تستطيع أن تمنحه نصف دستة أطفال، إذ يبدو من تصرفاتك كأنك لم ترغبي يوما في أن يلمسك رجل."

وكانت ملاحظة شديدة أبدتها دونا جوكاستا التي رأت جانبا من الحياة فأصبح في وسعها أن تتبين بوضوح نظرة العروس المدلهة بالحب، وقد رأت من رافينا موقف المدافعة متخذة مظهر الانسانة الأسيرة، وكان أفكارها وأشواقها تعيش على مبعدة أميال. سألتها لانونا:

"هل أنت شقية؟"

بدأت رافينا تسير نحو الباب وهي تقول:

"كيف أكون سعيدة، وأنت تقولين لي أنني أفتقد المزايا التي يجب أن تتوفر في الزوجة. لست محبوبة، ولا يرحب أحد بوجودي، ومع ذلك لا أستطيع أن أعد حقيبتي وأرحل في حرية من هذا البيت."

وجذبت الباب تفتحه وأسرعت تهرب من صالونها وانزوت في كهف مارك راغبة ألا يعثر عليها أحد. كان موعد تناول طعام الغذاء قد حان، وعثر عليها رينزيو، لكنها تمسكت بالصمت وهي تتناول الطعام مع مارك وجدته. وعندما غادرتهما دونا جوكاستا لتستمتع بالقيلولة، علمت رافينا من زوجها أن حفل الزفاف قد أعده أهل الضيعة، وسيقام هذه الليلة.

وأشعل مارك سيكارا واستلقى على المقعد، ثم قال:

"هذا الحفل دائما يقام عندما يتخذ البادرون لنفسه زوجة. سوف تستمتعين به، وسيرقص الشباب رقصة ايطاليا الشعبية .. الترنتيلة. وسترتدي الفتيات ثيابهن القومية، وستنتخب فتاة منهن لتقدم لك هدية."

وعضت رافينا شفتيها، ورأت بعيني

خيالها وجه دونانا المشرق فقالت:

"ولكن يا مارك، هذا معناه أنه لم يسبق لك الزواج من قبل."

لاحت مظاهر القوة في عينه، وعلى فكه وهو يقول:

"سيقام الحفل وعشيرتي في انتظاري. إنهم يعملون بجد واهتمام وعند حدوث مناسبة سعيدة يمرحون بحماس شديد، وأنت يا سنيورا دي كورزيو ستشعرين بالسعادة وأنت مرتدية أجمل أثوابك."

قالت له:

"هل نسيت أنك ألقيت الماء البارد ليلة الأمس على أجمل ثيابي."

قال:

"أجل .. حتى أنقذك من الاحتراق، وأنا أعرف كيف يشعر المرء عندما يلسعه نار الحريق."

قالت:

"مارك، إنني آسفة لأنني أبدو بلهاء في موقفي تجاه الحفل. لم أتوقع إقامته .. و .."

"والحديث الذي تبادلته مع لانونا ترك في نفسك شعورا بالاكتئاب."

ومال بجسمه الى الأمام، وتطلع مليا الى وجهها، وكانت رافينا تجلس على وسادة، وذراعاها حول ركبتيها، فبدت صغيرة السن، ووقورة.

وأردف يسألها:

"ماذا قالت لك جدتي؟ هيا خبريني."

"هي .. حسنا .. قالت أنك سوف تتركني في الكازا عندما تقوم برحلات عمل. لي الحق يا مارك .."

فقاطعها قائلا:

"في أن تكوني بصحبتي .. أليس كذلك؟"

"أن أرى جاردي عندما تذهب الى بريطانيا."

قال مارك وهو يعود بظهره الى الوراء ويرفع يده ليدخن سيكارا:

"مفهوم، ولكنني لن أذهب الى بريطانيا الا بعد فترة طويلة."

رحلتي المقبلة ستكون الى روما٠"
قالت:
"مارك ٠٠ هل تدعني أذهب معك؟"
ولم تكن رافينا تتصور أنها سوف تبقى في هذا المنزل الغريب المسكون بتلك الفتاة التي تضع طرحة فوق شعرها الأسود، وصورتها المعلقة في برج المادونا والتي رحب بها الجميع، وأردفت رافينا قائلة:
"اعتدت أن أتجول بطريقتي الخاصة، ولن أكون مصدر إزعاج، وسأبتعد عن طريقك عندما تلتقي بالناس لتجري معهم محادثات العمل٠"
ولاح لها أن وقتا طويلا انقضى قبل أن يقول لها متهكما:
"طبعا سأصحبك معي، لأنني اذا تركتك هنا وحدك ربما تفكرين في الهروب ثانية٠"
وتصاعد دخان سيگاره فاختلط بأشعة الشمس التي كانت تتدفق عبر النوافذ نصف المفتوحة، وكان لون عينيه السوداوين عميقا، وكان جانب وجهه غارقا في الظل، فلم تجد الأمر هينا لأن تشكره على وعده لصحبتها معه في رحلته الى روما٠ إنه يريدها معه لتظل تحت بصره، ولم تعد تثق في عدم ثورته اذا ما فكرت في الهروب مرة ثانية٠
سألته سريعا:
"هل زرت روما؟"
قال:
"أجل٠"
ونزع بتفكيره الى الماضي، وكأنما كان يتطلع الى الأماكن التي رآها ويحمل لها أجمل الذكريات، ثم عاد الى الحاضر ليستطرد قائلا:
"قضيت شهر العسل هناك!"

* * * *

٤- الظبي والجزيرة

زادت ظلمة الليل باختفاء القمر٠ وازدادت النجوم تألقا وبهاء٠٠ وامتلأ المكان بشذى الزهور و رافينا واقفة وحيدة في الشرفة المطلة على البحر تستجمع شجاعتها لتبدو مرحة في الحفل، فبعد قليل تتدفق جحافل الناس الى فناء الدار، وتضاء المصابيح وتبدأ جوقة الموسيقيين في العزف٠
ارتدت رافينا ثوبا رائعا، لم تجرؤ على السؤال عن صاحبته وانما وجدته على فراشها في غرفة برج الفارس، وزاد الثوب من تألق سحر عينيها، وأبرز فتنة وجهها، وانتظرت في عصبية لحظة يراها مارك، وسمعت وقع خطواته الهادئة تعبر أرضية الشرفة حتى وقف بجوارها، وأمسك برسغها وأدارها نحوه لينظر اليها، ولم تتفوه بكلمة عندما راحت عيناه تتأملان مظهرها في ثوب الجزيرة٠
قال:
"كم أنت فاتنة، ولكن أرجوك أن تبتسمي٠ الثوب يخص جدتي، وقد طرأت لي فكرة أنه يناسبك٠"
وبدت الدهشة في نظرات رافينا وقالت:
"هل تقصد أن لانونا سمحت لي بارتدائه؟"
تلألأت أسنانه وسط وجهه البرونزي وقال:
"ليست لانونا ٠٠٠ وانما أقصد جدتي السلتية ديلمزا التي كانت وهي ترتدي هذا الثوب٠"
حكت أصابعه عنقها وهو يثبت حوله السلسلة الذهبية التي تحمل المرصع باللآلىء٠ واستقر على صدرها،

ولمسته رافينا، فأحست الدفء الذي بقي فيه من يد مارك.

تمتمت قائلة:

"كم هو جميل هذا ديملزا. شكرا لك يا مارك لأنك سمحت لي بارتدائه هذه الليلة."

"أنا أعطيته لك."

"ولكن ..."

ووضع مارك أصبعه فوق شفتيها ليمنعها من مواصلة الحديث، وقال:

"لم يرتده أحد سوى ديملزا، وقد قدمه لها جدي عندما جاءت الى هنا."

وشعرت رافينا فجأة بالدموع تحرق مآقيها، فقالت:

"مارك .. أحيانا تبدو رحيما للغاية."

وعرفت يداه طريقهما الى وسطها، وقال لها:

"ولكنني في أغلب الأحيان أبدو قاسيا، أليس كذلك؟ كم أحب أن تقبليني يا رافينا."

ووقفت رافينا على أطراف أصابع قدميها وكانت تنتعل خفي ديملزا الاسودين، وقد زينا بشرائط وردية، ثم مست شفتاها خد مارك غير المشوه، وفجأة شعرت به يتوتر فقد أدرك أنها لا تستطيع أن تحتمل لمس ندوبه، لأن التفكير في لمسها كان يثير الرعب في قلبها.

وأحكم قبضة يديه حول وسطها، فمالت برأسها الى الوراء، وزادت عيناها الخضراوان اتساعا، عندما مال بوجهه نحو وجهها وقال لها:

"كان يجب أن يكون الحفل تنكريا، ما رأيك لو أنني غطيت وجهي؟"

انطلقت من بين شفتيها صرخة قائلة:

"مارك..."

ولكن قاطعها قائلا:

"وجهي يفزعك .. كما أفزع تلك الطفلة التي خرجت من المدرسة."

"كفى .."

"أفزعك .. ولكنك ستتعلمين كيف تعيشين معه مثلي."

وانسحب، وقد ثبت ربطة عنقه، وارتدى سترة سوداء، وقميصا أبيض اللون، ثم قال:

"تعالي. من الأفضل أن نهبط لمقابلة الناس الذين وصلوا، فالحفل أوشك على الابتداء."

وكان الفناء حاشداً بالناس رجالا ونساء، يرتدون أفخر ثيابهم، يحدوهم المرح والضحك، وبدا حب الاستطلاع في عيونهم عندما ظهر مارك في الفناء بصحبة عروسه الشابة فصاحوا:

"مرحبا بك في منزلك يا بادرون، جئنا للاحتفال بالزواج السعيد."

وأقبل عدد كبير منهم لتحية رافينا، البعض يضغط على يدها، والبعض الآخر يقبلها وأحست أن ابتسامتها تجمدت على شفتيها إزاء الطريقة المتكلفة التي تنظر بها النسوة اليها، وأدركت أنهن يقمن بمقارنتها بالعروس التي سبقتها ووقفت الى جوار مارك. كانت دوناتا واحدة منهن مشرقة ذات وشاح يكسو شعرها الأسود مثل لون بشرة مارك، أما هي فشعرها أحمر اللون، وبشرتها شاحبة.

شعرت رافينا بالتوتر وودت أن تبكي. وأحست بالمهانة من الصورة التي تعرض بها على الجميع، ولكن سرعان ما زايلتها هذه المحنة عندما أقبل الخدم يحملون اللحم الذي تنبعث منه رائحة الشواء، والخبز، وأطباق المعكرونة، والزيتون، والجبن، والطماطم، والفواكه، وقناني الشراب الأحمر والأبيض، وملئت الكؤوس وشرب الجميع نخب البادرون وعروسه، وهم يرددون قائلين:

وأجبرت رافينا أن تجلس بجوار دونا جوكاستا، وعدد من صديقاتها وانهلن عليها بالاسئلة العديدة، وكانت لانونا تقوم بترجمة فحواها لرافينا التي أجابت عنها أفضل إجابة، وكم كانت سعادتها عندما بدأت رقصة الترانتيلة.

لم تشاهد رافينا الرقصة من قبل، وشعرت بعد لحظة

بسحرها وخاصة بعدما بدأ الرجال يتسللون الى داخل الحلقة التي عقدها بعضهم، وسرعة الموسيقى تسارع في وقعها، وبدأت الفتيات في نداء أسماء الشبان الذين يعجبن بهم. وكانت فتاة فاتنة تقف بالقرب من رافينا عندما التقطت زهرة من شعرها، وألقت بها الى راقص خبير في الرقصة، فأمسك بالزهرة ووضعها بين أسنانه البيضاء، وترددت ضحكات لم يسبق لرافينا أن سمعتها. كانت ضحكات أناس يشتغلون بجد واهتمام، ويلعبون بحماسة شديدة وتجري في عروقهم حرارة الشمس الساخنة، والريح العاتية، وجمال الجزيرة المتوحش.

وعندما انتهت الرقصة بدأ الراقصون يرطبون حلوقهم باحتساء الشراب بينما كان عازف غيتار يشدو بأغنية عاطفية، وكانت رافينا تراقب كل ما يجري فرأت مارك يتحدث الى بعض رجاله ... ربما كانوا هم هؤلاء الذين سارعوا الى إطفاء ألسنة الحريق التي كانت امتدت اليه.

كانت رافينا تحاول أن تتوارى في الظلال، بينما كان مارك يدور بنظراته بحثا عنها، وكشف المصباح عن الصرامة التي ارتسمت على ملامح وجهه. قال له أحد الرجال بصوت عال:

"بادرون، يجب أن نذهب لصيد السمك عندما يحين الوقت. آه .. يجب أن نصطاد بالرمح حوتا رهيبا."

قال رجل آخر ضاحكا:

"الرجل صياد وعليه أن يجد فريسته."

لطم الرجل الأول ظهر الرجل الآخر وقال:

"أنت تتكلم عن النساء، وتقارن بين صيدهن وصيد السمك. إن صيد النساء أفضل رياضة للرجال، لأنه في الحقيقة ليس من السهل ترويضهن. ما قولك يا بادرون في أن المرأة الأليفة أشبه بالمعكرونة الخالية من الصلصة."

أجابه مارك وهو يبحث بعينيه عن رافينا:

"المرأة التي لا تتشاجر معها ثمنها يقل. إنها تحتل قلب الحياة .. وحيثما توجد الحياة فلا بد من نشوب المعركة."

ضحك الرجال وراحت عيونهم تتفحص النساء في ثيابهن الملونة، وكانت هالة من الكبرياء والصراحة تحيط بهن، دون أدنى لمحة من خضوع في سلوكهن. وتقدمت فتاة فأزاحت الوشاح الذي يغطي رأس رافينا، ومررت أصابعها فوق وجنتها وهي تتمتم:

"سيدتي العاشقة."

وكشف صوت الفتاة المرتعش عن المكان الذي اختبأت فيه رافينا، فاضطرت هذه أن تتسلل من مخبئها، وتقف في دائرة ضوء المصباح؛ وفي الحال رآها مارك، وعندما اقترب منها أحست أنفاسه تلفح عنقها. وكان طويلا، أسمر اللون، يحدق فيها بنظرة تنبىء الجميع بأنها ملك له.

سألها بصوت ساخر:

"هل استمتعت بالحفل؟ كما ترين، الرجال يرقصون مع زوجاتهم، وسيبدو الأمر غريبا لو أننا لم ننضم اليهم في رقصهم."

وجذبها الى حلبة الرقص، وكانت الرقصة لا تعدو أن تكون خطوتين بسيطتين ولكن رافينا كانت تتعثر في رقصها، وفجأة أطبقت أصابع مارك على وسطها، وهمس في أذنها بقسوة:

"هل تكرهين لمسة يدي كثيرا؟"

وضغطت وجنته على وشاحها الذي يغطي شعرها، وبدت همسته أمام الجميع أنه محب لها وله بها، فأغمضت رافينا عينيها حتى لا ترى المصابيح، والمرح الذي ارتسم على وجهه، وقالت:

"إنني أحاول يا مارك أن أبدو عروسا سعيدة في الحفل. إنها لا تكاد تكون غلطتي اذا لم يستطع قلبي مشاركتهم."

وتوقفت الموسيقى عن العزف، وحانت اللحظة التي يقدم فيها الناس للبادرونسيتا هدية الحظ السعيد هؤلاء الناس الذين توافدوا يحدوهم حب الاستطلاع لرؤية عروس البادرون، ويشعرون بالشفقة نحو هذا الرجل الذي قاسى كثيرا من مأساته، وهو الآن يعيد بناء حياته مع عروس جديدة شابة.

تجمع الناس حول العروسين، وتقدمت فتاة تفوهت ببعض

الكلمات الخجلة، وقدمت لها هدية غير مألوفة، وكانت الهدية ظبيا منقطا، بعيون واسعة وسيقان طويلة، وكان دور رافينا أن تقوم على رعايته وتدليله. ربت مارك على أذني الظبي وقال مبتسما:

"من أين حصلت عليه؟"

تقدم أحد الفلاحين وانحنى أمام رافينا .. وقال:

"ابني الملاح أتى به من رحلة بحرية كان يقوم بها. سيدي البادرون .. زوجتك يبدو على وجهها تعبيرات ذات مغزى والظبي يجب أن يكون ملكا لها."

هز حديثه مشاعر رافينا وقالت له:

"أشكرك .. أخبرهم يا مارك كم أنا ممتنة بهديتهم."

مست يده كتفها، وأحست بالدفء يسري خلال بلوزتها الحريرية، فقال لها:

"إنه في وسعهم أن يشعروا بسرورك ... يا عزيزتي."

قالت:

"ألف شكر."

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة وقورة، وكانت عيناها مخضلتين بالدموع بينما تشعان الشعور بالامتنان والخجل لأنها استطاعت أن تعقد صداقتها مع أهل سردينيا الذين يتصفون بالطيبة.

وكان الوقت يشير الى منتصف الليل عندما بدأت الجموع تستقل عرباتها أو تمتطي دوابها، عائدة الى ديارها. وكانت تصيح وهي تودع العروسين قائلة:

"وداعا! ليلة طيبة!"

"حفلا سعيدا."

وبدأ وقع الحوافر يخفت تدريجيا، وهي تبتعد عن المنزل، وأطفئت المصابيح واحدا تلو الآخر. ووجد البادرون وعروسه نفسيهما وحيدين في فناء الدار. واستند مارك الى شجرة سرو، وراحت عيناه تلاحظان الطريقة التي يقبع بها الظبي على ذراع رافينا وكأنه طفل صغير. فقال لها:

"يبهجك هذا الظبي الوليد ... أليس كذلك؟"

قالت:

"لم أمتلك شيئا يبهجني مثل هذا الظبي، وانني أفكر في اختيار اسم يناسبه وأفضل أن أطلق عليه اسم بامبو. اذا لم يكن هذا الاسم شيئا."

قال مارك بكسل:

"يبدو هالاسم غريبا. علينا أن نجد له مأوى في الاسطبل. هناك يمكن أن يعقد صداقة مع مهر يتيم."

حملا الظبي ووضعاه الى جوار المهر الذي أجفل وصهل، وأراد مارك أن يهدىء من روعه، فربت عليه بيده، وسطع الضوء من مصباح معلق، فكشف عن الندوب التي بدت واضحة على يديه. وتطلع اليها مارك فرآها تحدق في هذه العلامات الرهيبة، وأدرك أنها أثارتها، وتطلعت عيناها الى عينيه، فشاهدت فيهما رغبة متأججة، فقال لها:

"هل تحبين ركوب الخيل؟"

"أجل .. قليلا."

قال:

"غدا ستمتطين جوادا معي لنقوم بجولة سويا. أما الليلة .."

وصمت قليلا .. ثم واصل حديثه:

"أما الليلة .. فسوف تتعلمين كيف تعيشين مع وجهي ولمسة يدي التي قد تحرق جسمك."

وقبل أن تشرع في التحرك، لف ذراعيه حول وسطها، وبدأت خطواته تغادر الأسطبل، وهو يحملها ليمر من تحت البهو المؤدي الى المنزل الغارق في الصمت.

والآن أصبحا وحيدين تماما، بعدما انتهت الحفلة، وشعرت رافينا بضربات قلب مارك تدق وهو يرتقي درجات السلم ليصل بها الى برج الفارس. كانت يداه قويتين وهما ممسكتان بها وشعرت أنه ليس هناك أي سبيل للهرب منهما.

وأخيرا وصلا الى باب دفعه بقدمه فانفتح، وكانت القناديل المعلقة بجوار الفراش مضاءة، وتلقي بظلالها المتوجهة على الأغطية المطرزة التي تكسو السرير الكبير، وتطلعت ببصرها الى الفراش ثم الى الوسادتين عندما أنزلها مارك عن ذراعيه لتقف على قدميها.

ترنحت رافينا من جراء المرح الذي استمتعت به، وشراب الجنوب الذي انتشت به، ولأنه حملها على ذراعيه الى غرفة العروس بمقصد لا يخطىء معناه، ولم تشعر الا ويدها تمسك بأحد أعمدة السرير، وتاجها الأحمر يهوي من فوق رأسها، ووشاحها يتهدل فوق كتفيها. وشخصت ببصرها نحو مارك فامتلأت عيناها بالخوف من هذا الغريب الأسمر الذي يعد زوجها .. وهو ينظر اليها بعينين سوداوين تحترقان بلهب مكبوت. قال لها بهدوء:

"لم يكن من شروط الاتفاق أن نعيش منفصلين. أنت تعرفين بنوده قبل زواجنا، ولابد أنك أدركت معنى كل كلمة من كلماتي. إنني أريد زوجة."

وابيضت أصابع يدها وهي تقبض على عمود السرير، ثم قالت:

"لكي أنجب لك ولداً .. آه أجل .. أعرف الشروط يا مارك، ولم يراودني الأمل يوما بأنك سوف تعدل عنها، بل لم أتوقع ذلك منك."

"هل كنت تتوقعين أن تجدي عاشقا؟

واجهت عينيه وهي تقول:

"طبعا .. أنا لست طفلة يا مارك. أنا أعرف أن في وسع الرجال الشعور بالرغبة دون الاحساس بالحب."

سألها:

"أي رجل علمك هذا؟"

أجابت:

"المرأة تعرف أشياء كثيرة من دون حاجة الى أن تتعلمها."

وتركت شعرها يتهدل حتى وصل الى مستوى قلبها بينما كان مارك يخطو خطوة كبيرة نحوها ويقبض على رسغها، ثم يقول لها:

"هل تظنين أنني لا أعرف أنك تشيرين بذلك الى رودري برينين، وأنك ما زلت تهتمين به حتى الآن؟"

سألته:

"وكيف لي أن أقول إنني لا أشعر بشيء؟ كيف لي أن أنسى السنوات السعيدة؟"

فاشتدت قبضة مارك على رسغها وكأنه يبغي تحطيم عظامها، فنظرت اليه ورأت في عينيه صورة لكل ما فعله به رودري الذي شاطرها أسعد أيام الطفولة وسنوات المراهقة، وحفلات الرقص التي دعاها اليها، وهو متألق في زيه العسكري .. ولكنه كان يبدو لها ضعيفا في حين ترى مارك قويا لا تنثني قناته.

قالت له:

"إننا نحكم على الناس من زاوية شخصية بحتة، فأنت تكره رودري، وأنا أدرك ...."

فقاطعها مارك قائلا:

"أنا لا أفهم كيف يمكن أن تحبيه!"

وتوقف قليلا عن الحديث فرأت وجهه كالثوب الأبيض، وعينيه الغاضبتين تعكسان نظرة ألم، ثم أردف يقول:

"كلما نظرت اليك أرى برينين في عينيك، وكلما اختلينا سويا أراه يشاركنا الغرفة."

فقالت له:

"لأنك تحاول دائما أن تذكر اسمه في حديثنا. هل من المحتم عليك أن تبدو قاسيا هكذا يا مارك؟ ألا تظن أن رودري قاسى هو الآخر الشيء الكثير؟"

"إنني أتوقع أن يصحو ضميره - هل عاد الى انكلترا لأن ضميره دأب على مطاردته، ورأى أن يغرق دوي الحادثة بين ذراعيك؟"

صمت مارك، وعندما اقترب منها سطع ضوء المصباح فوق صفحة وجهه ثم أردف يقول:

"هذه الليلة سوف تنسين رودري، سوف تنسين كل انسان في الوجود، الا أنا!"

أنصتت رافينا اليه ولم تستطع أن تتفوه بكلمة، وكان الصمت مطبقا وهي واقفة تتطلع اليه، والى عينيه السوداوين، كسواد الليل الذي غاب فيه القمر، وأحاط المنزل في كنفه. وكان البحر صامتا، وأشجار السرو ساكنة، وألسنة الغضب والألم تتوهج في عينيه.

وأخيرا .. قالت شيئا. هل تفوهت باسمه؟ .. كل ما تعرفه

أن الأرض اختفت من تحت قدميها عندما حملها على ذراعيه، وأخفى الندوب في لهب شعرها الداكن.

هل كان مارك صادقا عندما أخبرها في اليوم التالي بوجود بعض المشكلات في أحد مصانع الموالح وضرورة ذهابه الى هناك لحلها؟ لم تستطع رافينا أن تقرأ شيئا في عينيه بعد أن استيقظت من نومها، واكتشفت وجوده بجوارها، وشعرها الأحمر ملفوف حول عنقها.

رحل مارك قبل الظهر، وفي المساء وصلت رسالة تخبرها بأنه سوف يتغيب يومين أو ثلاثة، وأرخت رافينا عينيها وهي تتناول طعام الغذاء مع جوكاستا حتى لا ترى مدى الارتياح الذي غمرها لغياب مارك. إنه ارتياح يبعث على الاسترخاء للتخلص من التوتر المستمر الذي يثيره وجود مارك، وفي وسعها الآن أن تستكشف الشاطىء الذي يقع تحت المنزل. الحياة تدعوها الى الارتماء في أحضانها و رافينا تعشق البحر وخاصة أنها سباحة ماهرة. وكم كانت ممتعة تلك العطلات التي أمضتها على الشاطىء بصحبة جاردي .. و رودري.

حاولت أن تسدل الستار لتمنع عقلها من التفكير في رودري، ولكنه كان يقتحم دائما خلوتها بطريقة تجعلها تحس بأنه يفكر هو الآخر فيها، فتنهدت وأحست أن دونا جوكاستا تراقبها بحدة وسألتها:

"هل تفتقدين وجوده؟"

فتطلعت رافينا اليها، ووجدت عينيها مسلطتين عليها:

"هل تقصدين مارك؟"

"ماركوس؟ أجل! ومن سواه؟ هل هناك شخص آخر غير زوجك تفكرين فيه؟"

واكتنف سؤالها شك حاد فقد كانت رافينا تعرف أن الجدة ستراقب حركاتها طوال فترة غياب حفيدها وربما طلب منها أن تراقبها عن كثب. قالت رافينا بحرص:

"أشعر بحنين للوطن. هذا كل ما في الأمر. كل انسان ما عدا مارك يعد غريبا علي، وغدا سأعتاد على بيتي الجديد."

تجهمت جوكاستا:

"إنني أدير هذا المنزل منذ ماتت دوناتا، ولن يطول بك الزمن حتى تكوني قد تسلمت مفاتيحه مني."

قالت رافينا بتأكيد واضح:

"أنا .. أنا لا أريد المفاتيح. إنني سعيدة بأن أدع لك تدبير أمر الكازا. إنني لا أريد أن أقلب وضع الأمور أو تغييرها."

سألت الجدة العجوز:

"لماذا؟ ألأنك لا تحاولين الاهتمام به؟"

وكان هذا الرأي قريبا من الحقيقة، وكانت رافينا سعيدة عندما تحولت لتتناول قطعة من الكعك المغطى بالكريم، وبعد الغذاء استأذنت من دونا جوكاستا في الانصراف للقيام بكتابة بعض الرسائل، وبعدما استجمعت أعصابها بكتابة رسالة الى جاردي تخبره فيها عن سعادتها في المنزل الذي تحيط به أشجار السرو، ووصفت له الحفل الذي أقيم احتفالا بزفافها، والقرية التي تقع فوق التل...

.. ثم راحت تكتب رسالة الى رودري، ولكنها ما كادت السطور تبلغ منتصفها حتى كورت الخطاب في قبضة يدها والقته في نار المدفأة، فقد رأت أنه لم يعد لديها شيء تضيفه الى ما قالته له في يوم زفافها، فهي تعرف تماما أن سلامة صحة جاردي تتوقف أساسا على السرية التامة لكل ما حدث، واذا اعترف رودري لأبيه بأنه قتل ابن مارك، فمن المحتمل أن النبأ سيؤدي الى قتل جاردي.

وفي صباح اليوم التالي توجهت الى مكتب بريد القرية لتبعث برسالتها ثم اتخذت طريقها على الدرب المؤدي الى ساحل البحر، وعندما بلغت الشاطىء، وجدته مهجورا فتخلصت من خفها، وجرت الى الامواج المتكسرة لتستمتع ببرودة الماء فشعرت بالهدوء والطمأنينة، وفجأة قطع عليها خلوتها صوت نباح كلب صغير، مبلل بالماء، أخذ يتسلل من بين الصخور ليقترب منها، ويقف أمامها ساكتا، مشدوها مثلها. وتحول نباحه الى هرير قصير. قالت له:

"حسنا، أنا لست أخشاك، وأنت بالتأكيد لا حاجة بك الى أن

تخشاني."

وهمد الهرير، وبدأ الكلب يتقدم منها وهو يهز ذيله. كان كثيف الشعر، تتهدل خصلات منه فوق عينيه. شكله يدعو الى الضحك وهو مبتل، وهذا النوع من الكلاب تحبه رافينا أشد الحب. سألته:

"من أين أتيت؟"

ومدت له يدا حانية، فأحنى رأسه، وأخرج لسانه ليلعق يدها، بينما راح ذيله يتأرجح بقوة، وفجأة سمعت رافينا صوتا ينادي:

"تيو!"

كان الصوت آتيا من وراء الصخور، فتطلعت في اتجاهه، ورأت رجلا ينسل من بين الصخور، عاري القدمين، شعره مجعد، نحيل القوام، يرتدي سروالا ضيقا أزرق اللون، تعرضت أكثر أجزائه للبلى، وقميصا أبيض اللون وصلت فتحة الصدر الى وسطه، وتتراقص مدالية على صدره البني العاري. واستطاعت نظرته الجريئة أن تلتقط كل صغيرة وكبيرة من مظهر رافينا، ثم استقرت أخيرا على شعرها الذي استحال لهيبا عندما سقطت عليه أشعة الشمس، وراحت الريح تعبث بخصلاته فوق كتفيها.

قال الشاب وهو يقترب منها، وقد انفرجت شفتاه عن صفين من الاسنان البيضاء:

"عثرت على صديق لك يا تيو .. أليس كذلك؟"

صمت قليلا ثم قال بالايطالية: "صباح الخير يا سنيورينا.."

.. ثم أردف يقول بالانجليزية وكأنه يعرف شخصية من يحدثها:

"كيف للانسان أن يعرف مبلغ سعادته في هذا الصباح عندما يعثر على صديق فوق رمال الشاطىء؟"

تأملته رافينا مليا، ولكنها لم تستطع أن تتذكر أنها رأته في حفل الأمس. كان لديه ذلك النوع من النظرات التي لا يستطيع المرء نسيانها. وتقدم منها وانحنى انحناءة خفيفة وقال:

"يجب أن أقدم نفسي لك. أنا ستيليو فابريزي. لا أدري إن

كنت قد سمعت عني أم لم تسمعي، إنني يا سنيورا، رسام!"

وفي الحال تذكرت رافينا الاسم ولكنها شعرت بعينيه تدغدغانها حين تحدثت لتقول له:

"هل تقوم بطلاء البيوت يا سنيور؟ إنه عمل مثير. أظن أن بيوت البحر الأبيض التي طليت بالألوان أصبحت شيئا فريدا، اذ أنها تنسجم جيدا مع أشعة الشمس والبحر."

ضحك الرسام بمرح وقال:

"من الغرور أن أدعي بأنني أحظى بشهرة كبيرة. أنت العروس الجديدة وسوف تنسجمين بدورك مع أشعة الشمس والبحر، وكان ظني أن تكوني شقراء باردة ذات نظرة نافذة ومقلقة."

قالت بهدوء:

"إنني آسفة أن أخيب تقديرك، يا سنيور فابريزي."

قال وعيناه تأسران عينيها:

"لم يخب ظني بل أعتبر نفسي سعيد الحظ لأن أجد فيك الشخص الجديد برسمه. إن صور عرائس أسرة دي كورزيو رسمها مشاهير الفنانين، وعندما سمعت أن مارك دي كورزيو قد تزوج ثانية، قررت أن آتي، وألقي نظرة على عروسه."

قالت لتسأله:

"أواثق أنت أن زوجي سوف يختارك لرسم صورتي؟"

رأت رافينا فيه الجرأة والشجاعة، وأحست أنه من السهل عليها مكايدته، وهو في ذلك يختلف عن مارك الذي يموج عامل الخوف دائما في أعماقه، ويدرك تماما أنه متحجر القلب، وتبدو قساوته على وجهه. وانتشلها الرسام من تفكيرها حينما قال:

"مارك دي كورزيو رجل مشهور، وحيث أنني أقيم في فيلا صغيرة تقع على الساحل الزمردي، فانه سوف يستدعيني لرسم صورة زيتية لعروسه البريطانية."

"أنا من مقاطعة ويلز يا سنيور."

وجال ببصره نحوها متفحصا فشاهد شعرها الأحمر، وعينيها الخضراوين، وشموخها وهي تقف بين الأمواج

المتكسرة، والزبد المتطاير يتناثر خلف شعرها.
قال لها متمهلا:
"اجل، أرى فيك سحرا أخاذا، ومن دواعي السرور أن أرسمك يا سنيورادي كورزيو."
قالت:
"إنني أفترض جدلا أن مارك سوف يستدعيك لرسمي."
قال الرسام بصوت يشوب الكبرياء نبرته:
"لا أنتظر عودة زوجك حتى أسأله القيام برسم صورة لك، فقد اعتدت ألا أستأذنه عندما يعجبني منظر طبيعي أخاذ يدفعني الى رسمه. فما بالك عندما أرى امرأة جميلة!"
"أكاد أكون جميلة يا سنيور .."
قال مبتسما:
"اذن دعينا نقول أنك فاتنة، مثيرة، ما رأيك في سردينيا .. هذه الجزيرة التي نطلق عليها نحن الايطاليين هذا الاسم. إنها تشبه الخف."
أجابت:
"إنني أجدها جذابة، نقية من كل فساد. ولو كنت فنانة لتوقعت ألا أقاوم اغراءات الجمال."
قال:
"عروس لا تقاوم الاغراءات."
وتطلع اليها ستيليو فابريزي بنظرة يشوبها حب الاستطلاع، نظرة دفعتها الى البحث عن خفها الذي تركته في منتصف الشاطىء، فقامت لاحضاره. وعندما سار الى جوارها رأت فيه رجلا قوي البنيان ولكنه ليس في طول مارك، وفي لحظة تجسدت فيه صورة رودري وهو يسير الى جوارها.
وأخيرا قال لها ستيليو:
"حلقة الصندل التي يتعلق بها أصبع القدم، هل هي مؤلمة؟"
ولوهلة لم تستطع رافينا أن تدرك المعنى الذي يعنيه، ثم عرفت أنه يشير بطريقة مهذبة الى الحياة في الجزيرة، والى كونها عروسا لرجل مثل مارك، فتألقت عيناها ببريق أخضر عندما غمرتها أشعة الشمس فتوتر الفنان وهو يتطلع اليها. قالت له:

"اذا سألتني يا سنيور اذا كنت أشعر بالراحة في الكازا فإنني سأجيب عليك بأن الأمر سيستغرق من المرء بعض الوقت حتى يحس بالاستقرار في وطن غريب."
فقال متعمدا:
"لديك عينان جميلتان يا سنيورا، ولكنني لا أرى أي نجوم فيهما."
سألته:
"هل تبحث عنها في وضح النهار .. يا سنيور."
خيم الصمت عليهما .. ثم قال:
"يجب أن تشاركيني طعام الغداء، لدي زورق صغير في المياه وراء الصخور، ولدي سلة وضعت فيها مديرة منزلي ألوانا مختلفة من الطعام. هل ترغبين في مشاركتي؟"
تطلع بصرها الى لسان الأرض الداخل في البحر حيث برز جناح من الكازا، وفكرت رافينا أن دونا جوكاستا تتوقع عودتها لتناول طعام الغداء معها في الصالون، وسوف تسألها عن المكان الذي قضت فيه كل فترة الصباح، وعن الشخص الذي أمضت معه كل هذا الوقت، ولذا وجدت من الصعوبة أن تلبي دعوته لتناول الطعام معه ومع كلبه، لذلك قالت له:
"شكرا. حقا اني جائعة، ولكن عبور الطريق الى الكازا يحتاج الى وقت."
صوب الرسام بصره الى المنزل ورأى ستارات النوافذ مسدلة تحول دون دخول شمس الظهيرة الى غرفه، والشرفة المطلة على البحر تبرز فوق الربوات، ويبدو أن للمنزل مظهرا منيعا ومنعزلا، وكأنه شيد ليبعد عنه أي طارىء غريب.
تمتم ستيليو قائلا:
"لن يضيق زوجك اذا ما شاركتني طعام الغداء."
قالت:
"مارك في رحلة عمل."
"فهمت ... ترك عروسه ليلهو قليلا .. ما رأيك؟
قالت:
"لا أشعر بأي ضيق. مارك لن يدع عمله ينحدر الى الحضيض

بسببي."
وكز ستيلتيو على أسنانه وهو يقول:
"يا إلهي .. لو كان زوجك ايطاليا لن يدعك وحدك هكذا. بل سيقضي حياته بصحبتك. لا يفارقك ليل نهارا!"
قالت:
"ما أرهب هذا وأشبهه بالحجز الانفرادي، إنه السجن."
قال ستيليو وكأن صوته اللاتيني يربت بحنان على كلماته:
"إنك سجينة الحب. لا يسع الرجل العاشق الا ان يقول: اذا لم يكن عندي شيء غير باقة من الورد فإنني سوف أقاسمك إياها!"
"أنت شاعر يا سنيور فابريزي، ولكنك بالكاد تتلاءم مع متطلبات الحياة اليومية. أنا أفضل أن يقتسم الرجل طعامه معي. إنني جائعة."
قال لها مؤنبا:
"أنت تقولين عبارات تكاد تتفق مع لهيب شعرك، والجواهر التي تتلألأ في عينيك."
"إن الشعر يتبدد اذا ألقي على مسامع امرأة جائعة. هل لديك قهوة في سلتك؟"
قدم لها يده وهو يقول:
"دعينا نذهب وسوف ترين."
تسلقا الصخور، وبلغا خليجا أرسى فيه ستيليو زورقا صغيرا في مؤخرته محرك فنقل من الزورق سلة الطعام، وتحت شجرة وارفة الظلال جلسا لتناوله وكان يتكون من السجق والخبز والجبن والزيتون وشرائح الليمون. وبعدما فرغا من الأكل احتسيا القهوة المكثفة، وانتابهما شعور بالتخمة فطلبا الراحة، وكان الجو باردا حولهما، بينما كانت أشعة الشمس تبعث الحرارة خارج الرقعة التي جلسا فيها.
قال لها فابريزي:
"يجب أن تتيحي لي الفرصة لرسم صورة لك يا رافينا."
"يجب أن أستشير مارك في ذلك يا سنيور. لأنه تحدث معي بصدد رسم صورة لي، لكنني لم أكن شغوفة بالفكرة."
ومال عليها ستيليو يتفرس وجهها ثم سألها:

"ولم لا؟ هل أنت خائفة من فنان فطن سوف يرى أشياء في عينيك تكشف عن امرأة غير سعيدة البتة؟"
دفنت أصابعها في الرمل الناعم، وودت أن تقول له انها سعيدة تماما ولكن ستيليو راح يربت على يدها. كان طيب القلب متفهما لعواطف الآخرين. ويدرك أن الشقاء جزء من الحياة مما يجعل الناس موضع الاهتمام. وخاصة بالنسبة اليه كفنان. قال لها:
"إن الجو يكون أكثر برودة فوق سطح الماء. دعيني أصحبك بزورقي في رحلة بحرية. إن زوجك غائب عنك."
سحبت يدها من تحت يده وقالت:
"وهل تظن أن الفأر من حقه أن يلعب في غياب القط؟"
ضحك ستيليو وبصره مصوب نحو شعرها الأحمر، وقال:
"رافينا إنك لست فأرا. إنك تشبهين لوحة للرسام تيتيان حيث تعكس العينان الحيوية والخجل. أنت تختلفين تماما عن دوناتا."
سألته:
"هل كنت تعرفها؟"
شعرت رافينا بأنفاسها تتلاحق وهي تسأله عنها اذ سرعان ما تتمثل أمام عينيها صورة المرأة التي أحبها مارك عندما يبدأ أي شخص الحديث عنها.
أجاب فابريزي:
"التقيت بها في صحبة مارك في روما، ولم يكن قد مضى على زواجهما فترة طويلة، ورسم صديق لي صورتها في مرسمه. كانت مخلوقا جذابا ذات عينين داكنتين، وفم كالزهرة المتفتحة. وأخبرني صديقي الفنان أنه كان مأخوذا بها عندما رسمها، لأنها تدعوك الى حبها وهي تعيش قصة حب."
خفضت رافينا عينيهاوكأنها ترى بوضوح اشعاع جمال دوناتا.
فسألته:
"ما هو الانطباع الذي تركه مارك عليك في ذلك الوقت؟"
قال ستيليو عن عمد:

"كان في صورة رجل له مهابة رومانية، وهو جالس في مرسم أرنو. كان يدخن، وعيناه تشعان الرضا وهو يراقب اللمسات الأخيرة التي يضعها الفنان في صورة دوناتا.
أتذكر انه وزوجته كانا ينعمان بكل شيء يرغبان فيه .. الجمال .. الثروة .. الحب. ولم أشاهد أي ظلال للشقاء في عينيها أو بادرة تشير الى انه وزوجته سيواجهان مأساة في ذلك اليوم."

نهضت رافينا واقفة على قدميها، وراحت تنفض الرمل العالق بثوبها القطني وقالت:

"بربك، لا تقل المزيد عنها. خذني في الرحلة البحرية، أرجوك."

وقطعا شوطا في عرض البحر حتى وصلا الى إحدى الجزر الصغيرة. حيث يوجد كهف يمكن للزورق أن يندفع خلاله، وكانت المياه تحت الزورق صافية وزرقاء .. يمكن من خلالها رؤية الأسماك وهي تقفز كالسهام.

ابتسم ستيليو وقال:

"هنا يجب أن أرسم صورتك، وأنت جالسة على الصخر مثل حورية تشدو بأغنية."

قالت وهي تعبث بأصابعها في الماء:

"من المفروض أن أشدو بأغنية من أغنيات ويلز."

وعندما بدأت تغني ترددت أصداء الأغنية بين جنبات الكهف، مما أثار الكلب تيو، وراح ينبح نباحا أشبه بنحيب جنية ايرلندا التي فقدت عزيزا لديها، فانفجر ستيليو ضاحكا، وبدأ يدير المحرك، ويتجه ثانية بالزورق الى عرض البحر، وكانت الشمس قد بدأت في المغيب عندما ألقى الزورق مرساه تحت المنزل، واشتعلت الشمس بلهب قرمزي ألقى ظلاله على البحر، وأخذت سحب الصيف تستكين في الأفق، وعندما تطلعت رافينا الى مغيب الشمس أدركت عدد الساعات التي أمضتها غائبة عن الكازا.

قال لها ستيليو وهو قابع في زورقه:

"أحب أن أبدأ غدا رسم الخطوط الأولى لصورتك."

وقفت على الشاطيء تلوح له بيدها، وترسم على شفتيها

ابتسامة وهي تقول له:

"لن أستطيع. يجب أن أستأذن مارك أولا."

سألها ستيليو ساخرا:

"هل تخضعين دائما لأوامر زوجك؟"

بدأ الجو يميل الى البرودة، والسحب تلقي وشاحها على الشمس الغاربة، وكانت رافينا تدرك أن الكآبة والانقباض قد يأتيان مع ختام الحفل. قالت له:

"أنت لا تعرف أن مارك لم يعد الشخص الذي التقيت به في روما. ان من الكياسة أن تتحدث معه أولا ... يا ستيليو."

قال لها:

"سأمتثل لطلبك يا رافينا. الوداع."

"وداعا يا ستيليو. وداعا يا تيو."

وتردد نباح تيو عبر الماء .. بينما أخذ صوت المحرك يخفت تدريجيا عندما أخذ الزورق يبتعد عن الشاطيء وأخيرا خيم صمت. ولكنه صمت لن يطول أمده فبعد لحظات سوف يبدأ المد وتتلاطم الأمواج فوق الصخور، فأدارت رافينا ظهرها للبحر، واتخذت سبيلها الى المنزل. وأرخى الليل سدوله، فأضيئت مصابيح باب الفناء، ودلفت الى المنزل على أمل أن تتجنب لقاء دونا جوكاستا، ولكن السيدة العجوز كانت تجلس على مقعدها بجوار المدفأة، وقدماها الصغيرتان تستريحان فوق المقعد الصغير، وعيناها الحادتان تتطلعان الى عقارب الساعة التي تشير الى الوقت الذي عادت فيه العروس الهاربة.

سألتها:

"أين كنت طوال اليوم؟"

أجابت:

"على الشاطيء."

كانت رافينا تقف وسط الصالة بقوامها النحيل، وشعرها المشعث، وثوبها الغضن، وذرات الرمل عالقة بأطرافه، وأحست أنها صغيرة أمام الجدة، فراودتها الرغبة في الفرار، ولكن هروبها كان يدينها بارتكاب جريمة، وهي لا تشعر بأي

جرم في تمضية الساعات بصحبة ستيليو فابريزي، فقد ساعدها على أن تخفف من ألم بعادها عن وطنها، وهي ممتنة له.

قالت الجدة:

"بابتيستا قالت أنك في صحبة رجل. أرسلتها للبحث عنك. ما قولك؟"

قالت رافينا بصوت يشوبه التحدي:

"بابتيستا تتمتع بحدة البصر. التقيت على الشاطىء بصديق لمارك هو سنيور فابريزي."

التقطت دونا جوكاستا أنفاسها وقالت متسائلة:

"الفنان؟"

أجابت رافينا:

"أجل."

"كل الفنانين مرحون ولكنهم أشرار، ومع ذلك أمضيت اليوم كله معه؟"

قالت رافينا:

"أغلب اليوم ... وبصحبة كلبه!"

ثم اتجهت لترتقي درجات السلم وهي تقول:

"إنني متسخة، وأرغب في الاستحمام."

قالت السيدة العجوز:

"لحظة أرجوك.."

فاستدارت رافينا طائعة:

"لن ترى هذا الرجل مرة أخرى ... إنني أمنعك."

قالت رافينا وقد شاب الغضب صوتها:

"أنا لست طفلة يا دونا جوكاستا. ليس في وسعك أن تمنعيني من اقامة أية صداقة مع أحد، أو تنصبي نفسك تنينا علي لمجرد أن مارك غائب عن البيت عدة أيام. إنني لن أنصاع لأمرك."

"ماركوس تركك في رعايتي."

"هل طلب منك حبسي في البرج، وأن يقتصر طعامي على قطعة خبز وماء؟ حسنا، لن أنوي أن أكون سجينة في هذا البيت المظلم. سأتوجه غدا الى الشاطىء، وأرجو أن أحد

سنيور فابريزي هناك. إنه يضحك دائما ياسنيورا. إنه ممتلىء بالحياة ويتطلع الى المستقبل، ولا يعيش في الماضي كل وقته."

وأخذت رافينا ترتقي الدرجات بسرعة، وعبرت البهو الى الفسحة المؤدية الى برج الفارس -حيث كانت وجنتاها ساخنتين، وقلبها يدق دقات متلاحقة، وشعرت أنها تكره مارك لأنه أصدر أوامره للتجسس عليها كما تكره هذا البيت، لذا قررت أن تقضي اليوم بطوله غدا في أحضان الشمس والريح ... وفي صحبة ستيليو!

٥- أصدقاء أم عشاق؟

شعرت رافينا باجهاد في اليوم الذي أمضته على الشاطىء، لذلك استيقظت اليوم التالي في ساعة متأخرة من النهار، ورأت أشعة الشمس تملأ غرفتها، وادركت أنها نامت فترة طويلة.

جلست على الفراش، فوجدت صينية بجوار السرير، وضعتها على ركبتيها وصبت فنجانا من القهوة، وأكلت المربى والبيض بشهية. وأحست أن النهار ملك لها، تفعل ما تشاء، فان دونا جوكاستا لم تستطع أن تجعلها سجينة غرفتها.

وبعد انقضاء ساعة، اغتسلت رافينا وعقصت شعرها في تصفيفة ذيل الحصان، وارتدت بلوزة وسروالا فبدت أكثر شبابا، وعندما تطلعت الى المرآة، توارد الى ذهنها صورة دوناتا المعلقة في برج المادونا، وتذكرت ما قاله لها ستيليو فابريزي عن مارك عندما التقى به في روما منذ ست سنوات. كان بهي الطلعة، سعيدا، بلا ظلال شقاء في عينيه.

راودتها الرغبة أن تشاهد الصورة الآن، قبل أن تذهب الى الشاطىء وأسرعت بفتح باب غرفتها، فلم تجد أحدا، فالخدم منهمكون في تنظيف وتلميع الدور السفلي، ولن تحظى غرف الدور العلوي بالاهتمام الا في ساعة متأخرة من النهار، وهذا يتيح لها فرصة للتسلل الى برج المادونا دون أن يلحظها أحد.

انسلت من باب صغير في جدار برج الفارس، ووجدت

نفسها أمام جسر حجري صغير يربط بين البرجين، وكان برج المادونا يشبه برج الفارس في تصميمه، فعثرت على باب صغير في الجدار قادها الى ممر معتم يتسلل اليه النور ضعيفا من نافذة ضيقة، وكانت الغرفة التي عاش فيها مارك مع دوناتا لا تختلف عن غرفة العروس التي يشغلها الآن مع رافينا.

كانت غرفة دوناتا تكسوها الكآبة، وأسرار الماضي أصبحت رهينة أثاثها وتحفها، والستائر المسدلة تطوي الهمسات التي دارت بين الجدران، والسجادة صامتة صمت الدخان وهو يسعى هادئا، والحائط يحمل صورة الفتاة التي مارك.

لم تستطع رافينا أن تدرك ملامح زوجة مارك الأولى أو الثياب التي ترتديها وكانت الشمعدانات مطفأة وهي قابعة تحت اللوحة، والى جوارها علب الثقاب وتشير الى أن شخصا ما يأتي بين حين وآخر ليشعلها ويقوم بتأمل اللوحة وسط السكون الهامس الذي يشيع في أرجاء الغرفة.

أشعلت رافينا الشموع فألقت بأضوائها على الصورة، فرأت الثوب الذي ترتديه دوناتا. كان يمثل عصر ميدتشي، وقد تهدل في ثنايا رقيقة فأبرز قوامها النحيل، وتناثرت اللالىء على شعرها الأسود وصفوف أخرى منها تحيط بعنقها الأبيض الطويل. من الممتع أن يتأمل المرء صورتها بقدر ألمه لفقدها.

حملت رافينا شمعدانا، وأحست أنها فقدت الاحساس بالزمن عندما راحت تتأمل الفتاة التي منحت مارك نعمة المرح لدرجة أن أية امرأة لم تستطع أن تشغل بعد رحيلها مكانها في قلبه أو عقله، أو أحاسيسه. كانت تبدو شابة و مارك في العشرين عند زواجهما.

كانت دوناتا

التقى بصر رافينا بعيني دوناتا، وفي لحظة رأت فيهما الحيوية والوعي والعداء لها. وفجأة سرى تيار من الهواء أطفأ اللهب المشتعل في الشمعة فتراقصت الظلال في الغرفة، وعندئذ انتابها ذعر شديد، فأسرعت الى الباب

تبغي الهروب، وعالجت المقبض يمينا ويسارا، ولكن الباب كان مغلقا بل موصدا.

وقفت رافينا مذهولة، ولم تصدق أنها أصبحت سجينة البرج، وأن أحدهم تسلل عبر الممر الضيق، وأغلق الأبواب وراءها وهو يعرف أنها هنا وحدها مع الصورة.

تملكها الغضب، وراحت تدق الباب بقبضة يدها، مرة، ومرتين حتى أدركت ألا جدوى من محاولتها، وأنها أصبحت سجينة لأحد سببين: اما لمعاقبتها على ما فعلته بالأمس أو بهدف إرهابها.

أدارت ظهرها للباب، وأسرعت الى أقرب نافذة وأزاحت الستارة جانبا، وفتحت مصراعيها، وأطلت برأسهاوجدت المسافة طويلة بين البرج وفناء البيت الواقع تحتها. كانت عيناها الحزينتان وشعرها المتهدل يوحيان بأنها حورية سجينة البرج منذ مدة طويلة، ولكنها تبحث عن طريقة للهروب أو فارس يسرع الى إنقاذها.

ولكن ليس من منقذ. كان الفناء شاغرا، والعمال في حدائق الليمون مختفين وراء الأشجار، وكانت الريح تهب حول البرج، وصيحات الطيور أشبه بصرخات السخرية، لديها أجنحة تطير بها كما تشاء، أما هي فسجينة هنا حتى يأتي أحدهم ليطلق سراحها.

دونا جوكاستا سجنتها هنا، أو أرسلت باتيستا المطيعة لتفعل ذلك. انها ظل سيدتها التي لا تفارقها، فهي عجوز الآن وتخشى أن تعصي الأوامر حتى لا تفقد عملها في هذا البيت.

سرت قشعريرة باردة في جسم رافينا، ولا تدري كم من الوقت مضى عليها وهي سجينة ولا بد أن تمر ساعات طويلة قبل أن تطلق دونا جوكاستا سراحها من البرج، إنه مجرد درس تلقيه على عروس مارك لأنها تجرأت وتحدثت الى رجل، وتحدتها بعزمها على مقابلته ثانية.

تطلعت الى الجدران لعلها تجد سردابا سريا. لاشك أن هذه الفكرة محتملة. فقديما في عصر غارات القراصنة، كان الانسان يشيد بيته بحيث يضم غرفا سرية، فيها تختبىء

أسرته، أو يبني سردابا يساعدها على الهرب اذا ما فكر المهاجمون في اقتحام البيت. وشرعت رافينا في الطرق على أماكن متفرقة من الجدران، ولكن لم تكن هناك أية استجابة لطرقاتها أو يدور أي إطار بارز ليفتح لها سردابا يساعدها على الهروب من الجدران السميكة.

دارت بعينيها في أرجاء الغرفة، ووقع بصرها على المرآة فرأت نفسها ترتدي السروال والقميص الصبياني، فلم تصدق أنها زوجة مارك، وبدا لها أن دوناتا ما زالت تحتل مكانها كسيدة القصر، أما الصورة التي تعكسها المرآة فهي لا تعدو أن تكون صورة طفلة شقية، وقد قال لها مارك ذات يوم وهما يغادران رافنهول:

"أنت ترتدين ثياب صبي، وأنا أتوقع أن أتزوج امرأة".

أدارت بأصابعها خاتمها الذهبي الذي يدل على زواجهما، وعادت تتجول في الغرفة حتى وقفت أمام النافذة حيث وجدت فيها فجوة عميقة، فقبعت فيها كما يقبع القط المتفطر قلبه، وبدت السماء الزرقاء ساخنة، وأشجار السرو داكنة وهي تناطح عنان السماء. كان الصباح جميلا ولكن رافينا ضحكت لأنها اختطفت بهذه الطريقة الغريبة في خلال هذه الساعة المشمسة التي كان من المنتظر أن تقضيها مع ستيليو فابريزي، وكلبه تيو، ولابد أنه حدس بأنها لا تتمتع بالحرية التي تتيح لها أن تنضم اليه في الشاطىء، وتتمتع برحلة بحرية، ولا يدري أن الأبواب أوصدت عليها وأصبحت سجينة.

فكرت في جاردي الذي يعتقد الآن أنها سعيدة، عندما يتلو رسالتها التي تسلمها الآن منها، ولكن أي سعادة تتكلم هي عنها؟ كيف تجدها في مثل هذا البيت المسكون بالفتاة الفاتنة دوناتا، وتحكمه سيدة عجوز كانت ترغب أن يتزوج حفيدها بفتاة من اختيارها.

شعرت رافينا بوطأة السكون والوحدة تجثم على صدرها، وبخوف مفاجىء من أن يمضي مارك غائبا لعدة أيام، فتقع تحت رحمة تصرفات شاذة أخرى، ومزيد من المؤامرات التي تثبط من روحها، وتصبح في النهاية ظلا

مطيعا مثل بابتيستا. عندئذ صرخت قائلة: "لا." وجرت نحو الباب لتتبين ما اذا كان مفتوحا أم ما زال مغلقا، ولكنها وجدته موصدا، وشعرت برغبة في البكاء، وبلعت ريقها، وحاولت أن تعزي نفسها بأن دونا جوكاستا سوف تطلق سراحها حينما يحين موعد طعام الغذاء، ولن تكون قاسية فتدعها سجينة حتى يحل الظلام وتسمع نعيق البوم.

أخذت وسادة من أحد المقاعد، وأزالت الغبار عنها، وهيأتها بحيث تستطيع أن تغمض عينيها عليها، وتعود القهقرى الى رافنهول. أجل هناك حيث توجد شجرة الدردار، والأرجوحة التي سقطت منها يوم أن دفعها رودري عاليا، واحست بالسعادة عندما طارت عالية، والخوف يغمرها، وصاحت به ضاحكة: "كفى" ولكن رودري لم يأخذ بصيحتها، وواصل دفع الارجوحة حتى سقطت منها .. وسمعت صوتا يقول:

"رافينا"

أحست بفزع وشعرت بألم في ذراعها فقالت:

أو .. رودري ..".

انسحبت اليد فجأة من فوق شعرها بعنف، واستيقظت تماما وهي فزعة عندما رأت أن الشخص الماثل أمامها كان مارك وأن الألم الذي أحست به كان نتيجة ضغط كتفها فوق سور النافذة. قالت بدهشة:

"مارك!"

قال:

"أنا آسف لازعاج أحلامك الجميلة."

دعكت رافينا ذراعها الخدرة، وأحست بدوار قليل:

"لقد .. لقد .. أخلدت الى النوم."

سألها:

"ماذا تفعلين هنا؟"

أحست بعينيه تتأملان شعرها، وسروالها الصبياني، وشعرت ببرودة تسري في أوصالها. قالت له:

"أوصد أحدهم الباب علي منذ ساعات مضت. جدتك فعلت ذلك يا مارك. أنا أعرف هذا تماما."

قال متجهما:

"أوصدت عليك الباب؟ الباب كان مفتوحا، وفي وسعك أن تتأكدي بنفسك. لماذا تتوهمين أن جدتي تفعل مثل هذا الأمر معك؟"

قالت:

"أنا لا أتوهم شيئا. إن دونا جوكاستا تكرهني، وتريد أن تخيفني."

بدت الدهشة وعدم تصديق كلامها على وجهه. سألها:

"أعتقد انك أتيت الى هنا من قبيل حب الاستطلاع. لم نعد نستعمل هذه الغرف فأصبحت أقفالها صدئة."

"أوصدوا الأبواب علي، وقرعت، ولكنها لم تفتح."

سألها:

"ولكن أين كان المفتاح؟"

"كل مفاتيح البيت مع دونا جوكاستا. أخبرتني ليلة الأمس أنها بحوزتها، وأنها لن تعهد بها لأحد."

"هل سألتها عنها؟"

تنهدت رافينا وقالت:

"بالطبع لم أسألها. لم نتشاجر بسبب ادارة الكازا وانما .."

"اذن أخبريني عن سبب المشاجرة؟"

"ذهبت الى الشاطىء، وكنت أنوي الذهاب اليوم أيضا. هناك قابلت ستيليو فابريزي، وأخذني في زورقه، وقمنا برحلة بحرية، وعندما عدت الى المنزل سألتني جدتك أين كنت، ولما أخبرتها أمرتني بألا أرى سنيور فابريزي مرة ثانية، وظننت أنها شخص دكتاتوري فقلت لها بأنها لا تستطيع أن تمنعني من أن أعقد صداقات مع الآخرين. وهذا الصباح لا بد أنها رأتني أعبر الجسر المؤدي الى برج المادونا، وأنا واثقة تماما أنها أمرت بابتيستا أن توصد الباب علي، حتى لا أستطيع أن أذهب الى الشاطىء."

"وهل أعددت الأمر لمقابلة فابريزي هذا اليوم؟"

ووقع السؤال عليها مثل لسعة السوط، وتذكرت أن الشخص الذي تتحدث اليه هو زوجها، وأن من حقه أن يعترض بشدة على أن تقيم أية صداقة مع الفنان الجذاب. قالت بصوت

مرتجف:
"أخبرني انه يريد أن يرسم رسوما تخطيطية لصورتي، فقلت له يجب أن يسألك أولا."

أحكم مارك قبضته وضغط بها على رسغها، وبدأت الجهامة تزول تدريجيا من وجهه وقال:

"أنا ممتن أنك ما زلت تتذكرين وجودي. سوف لا أغضب منك، فأنت جديدة على أساليب معيشتنا، وتعتبرينها قيدا على حريتك."

"أعتقد أن حبسي في البرج يعد قيدا على حريتي."

"لانونا واحدة من أهالي سردينيا، ومن المحتمل أنها ظنت بأن ماتفعله هو تأمين لسلامتك."

"مارك .. هل من المعقول أن أعامل معاملة الطفل العاق لمجرد أنني تناولت السجق والجبن مع سنيور فابريزي."

"أنت لست طفلة في نظر جدتي. أنت امرأة .. بل زوجتي .. وأهل الجزيرة يعتبرون لقاء رجل بامرأة وحدهما انما لغرض واحد، هو أن يمارسا الحب!"

"مارك .. هذا كلام غريب! في وطني يمكن للرجال والنساء أن يكونوا أصدقاء دون أن يكونوا عشاقا."

"أنت الآن هنا في وطنك يا رافينا!"

اشتدت قبضة يده، واقترب منها وهو ينظر الى عينيها مليا، ورفع رأسها بيده الأخرى حتى تألق احمرار شعرها في ضوء الشمس الذي تسرب خلال النافذة:

"هل لي أن أذكرك بأن من حقي أن أكون الرجل الوحيد الذي يحتل كل تفكيرك؟ هل جئت هنا لرؤية الصورة المعلقة على الجدران؟ وهل كانت تحدوك الرغبة في معرفة ما اذا كانت دوناتا أجمل .. وأدفأ .. وأكثر أنوثة منك؟"

ثم أضاف:

"سأطلب من فابريزي أن يرسمك، عرفته في روما قبل أن يصبح مشهورا في دنيا الفن. طبعا أخبرك بأننا التقينا هناك."

"أجل يا مارك. أنزلني من فوق ذراعيك. أشعر بدوار وأنا أنظر حولي دون أن أتعلق بسور الجسر."

"تعلقي بي - ضعي ذراعك حول عنقي، أيتها الساحرة الباردة."

ضحك مارك وترددت ضحكته في كبرياء، وهما يسيران فوق الجسر. انه رجل قوي وقاس لا يلين مثل الأرض التي يمتلكها ولا تستسلم بسهولة لليد التي تحرثها. وحتى هذه اللحظة كانت رافينا تحس بالخجل من أن تلمسه، وتمنت أن يدعها تقف على قدميها وهي تشعر بقناة الصلب الدافىء حينما رأت شخصا يقف تحت المنزل ينظر اليهما فقالت:

"مارك انظر، سنيور فابريزي يتطلع الينا."

كان ستيليو يلوح لهما، وشعرت بنفسها تتحرر من ذراعيه وهي تقول:

"يجب علي أن أذهب لأغير ملابسي، وسوف أنضم اليكم."

وأسرعت تعبر الجسر وتدلف الى برج الفارس، وأحست بالراحة عندما وجدت نفسها وحيدة في غرفتها، وجذبت حبل الجرس لتستدعي الخادم، وسألته أن يحضر لها ماء ساخنا، وتعجبت أن مارك لم يمد بيته بأنابيب المياه الساخنة، وسوف تتحدث معه في هذا الأمر، وأجفلت عندما امتد تفكيرها الى نفسها كزوجة، وأن من حقه أن يملي عليها طلباته. عاد مارك الى البيت، وفي هذه الليلة سيحاول أن يوقظها، ليس من أجل أن تستجيب لهذا الخدر الغريب الجامح الذي نسميه الحب، وانما لتستجيب لهذا الجوع الذي يعربد في أعماقه وتكون ثمرته طفلا جديدا تلده له.

أحضر الخادم الماء يتصاعد منه البخار. وعندما خرج فضت ثيابها وراء الستائر، وغسلت جسمها النحيل، وتخلصت من التراب، وأحاطت جسمها بفوطة، ثم سارت الى خزانتها لتنتقي أحد الأثواب، لا بد أن ستيليو سيبقى ليحتسي شرابا مع مارك، وأن يتبادلا الرأي حول موضوع الصورة، وتحديد موعد الجلسات التي تقف فيها أمام الفنان، كانت ترغب في أن تظهر على لوحة القماش في صورة أبهى من صورة دوناتا حتى تثير اعجاب الجميع بها.

ابتسمت رافينا وهي تتطلع الى نفسها في المرآة، فرأت ساقين طويلتين ونحيلتين، وقدمين بأصابع طفل،

وذراعين لهما استدارة محببة، وخصلات شعرها الأحمر تنسدل مثل ذوائب اللهب فوق كتفيها الشاحبين.

سمعت صوتا يأتيها من خلفها يقول:

"يا للأسف، انني لا أسمح برسمك في مثل هذا الوضع الذي أراه الآن."

سرت قشعريرة في أوصالها بينما كان مارك يعقد رباط عنقه عند باب الغرفة، فهو الشخص الوحيد الذي يحق له التطلع اليها وهي في غرفة نومها. قال لها:

"دعوت فابريزي لتناول طعام العشاء معنا."

قالت:

"هذا شيء جميل."

وأمسكت بثوب أصفر اللون، وأكمام من الشيفون، وكان مارك اقترب من المرآة ليثبت رباط عنقه فسألها:

"هل تحبين احتساء الشراب في الشرفة المطلة على البحر؟"

ثم تحول لمواجهتها، وأجفلت كعادتها من نظرة افتراسها التي تتلألأ في عينيه، ورسمت ابتسامة على شفتيها حتى تخفي اجفالها، وقالت له:

"وشيئا لنأكله. انني لا أستطيع أن أبقى بدون أكل حتى موعد تناول العشاء. يكاد يغمى علي."

ضاقت عيناه وهو يسألها:

"ألم تتناولي طعام الغذاء؟"

قالت وهي تضحك:

"أخبرتك أن أحدهم أوصد الباب علي وأنا في البرج، ولم يكلف نفسه حتى تقديم كسرة من الخبز أو كوبا من الماء.."

تقدم نحوها في خطوة حازمة، وقال:

"رافينا، أنا آسف أن تفوتك وجبة طعام الغذاء، وهذه تجربة مثيرة للأعصاب، ولن تحدث ثانية. سوف أتحدث الى جدتي بقسوة.."

هزت رافينا يده وقالت:

"لا يا مارك. سوف يزيد ذلك من عداوتها لي اذا ما تحدثت معها بعنف."

تجهم وهو يقول:

"عداوتها؟ هل تظنين الأمر كذلك؟"

قالت رافينا:

"وماذا يكون الأمر غير ذلك؟ دونا جوكاستا كانت ترغب في أن تتزوج فتاة من بنات سردينيا، بدلا من أن تأتي بفتاة غريبة، ربما فطنت أن زواجنا يا مارك لا يقوم على الحب!"

حدق في وجهها. وارتفع حاجباه، فرأت فيه الرجل الذي أجبرها على الزواج دون أن يتفوه بكلمة رقيقة، وجذبت نفسها منه، وتحولت عنه لتأخذ ثوبا وسألته:

"كيف عرفت أنني في البرج الآخر؟"

قال:

"الستائر كانت مفتوحة. كان يجدر بك ألا تذهبي الى هناك. الغرف كلها كئيبة، ويجب أن تظل مغلقة، سألقي نظرة عليها."

وفي اللحظة التالية، غادر الغرفة بسرعة تاركا رافينا وراءه لترتدي ثوبها، وتصفف شعرها في شينيون، وكانت فتحة الثوب تمتد ما بين كتفيها لتبرز نضارة بشرتها، وعظمتي الترقوة. وراحت تتأمل نفسها في المرآة، وقررت أن تتزين الذي أهداه اياها مارك.

تحولت رافينا عن المرآة لأنها رأت نفسها في صورة فتاة أشبه منها بالمرأة الناضجة التي يبحث عنها مارك والأم التي تهبه الطفل الذي يتوق الى رؤيته ليمحو من ذاكرته ذكرى الطفل الذي فقده بقسوة.

أقبل ستيليو، وعلى شفتيه ابتسامة ثم قبل يد رافينا وقال لها:

"التقينا ثانية يا مادونا والسنيور زوجك أذن لي برسم صورتك، ولا أستطيع الانتظار طويلا."

حيا ستيليو مارك بابتسامة سريعة ثم قدم مارك مقعدا لرافينا لتجلس عليه بالقرب من أزهار البرتقال التي كست جدار الشرفة المطلة على الشاطئ. قال الفنان:

"ليست السنيورا موضوعا يسهل ابرازه على اللوحة، ولكنني

أستمتع بالتحدي.

سأله مارك:

"لماذا لا تجدها موضوعا سهلا؟"

ثم راح يتأمل مليا ثوبها الأصفر، ويقارنه بلون نبتة البرتقال المرتعشة، وأشعة الشمس الحمراء التي تنعكس على شعرها ثم أردف يقول:

"يبدو لي أن زوجتي لديها الألوان التي تحوز اعجاب الفنان تيتيان؟"

قال ستيليو مؤيدا:

"تماما كما تقول. العينان تتغيران من خضرة البحر الى لون أشجار الغابة الغامضة تبعا لتغير مزاج صاحبتها."

"أعدك بأن أظل في وضعي ساكنة كلما جلست أمامك يا سنيور."

وشعرت بالخجل من الطريقة التي تناقش بها موضوع رسمها، وأحست بالارتياح عندما ظهر رينزيو حاملا صينية عليها المشروبات والسندويتشات، وفي أعقابه يسير الظبي بامبو فأقبلت عليه رافينا بفرح شديد.

قال رينزيو معتذرا:

"ظن نفسه كلبا كبيرا يا سنيورا، فاقتفى خطاي، هل أعود به الى الاسطبل؟"

ابتسمت رافينا وربتت على أذني الظبي وقالت:

"دعه لي يا رينزيو. انه جذاب، أليس كذلك؟"

قال مارك:

"لا يمكنك أن تتناولي السندوتشات والظبي في حجرك. انظري، انه يحك أنفه في شعرك."

أشارت رافينا بأصبعها الى الظبي تحذره قائلة:

"اهدأ."

ثم التفتت الى مارك وقالت:

"سيكون رائعا، متألقا مثل الذهب."

قدم مارك لها طبقا عليه الساندوتشات، ثم التفت الى ستيلتو وقال:

"هل تشرب كأسا يا سنيور فابريزي؟"

قال ستيليو وهو يتقبل الكأس:

"شكرا."

ثم تطلع الى رافينا والظبي وأردف يقول:

"وجدت الآن فكرة الصورة التي سأرسمها لك، بينما الظبي يقبع في حجرك أو ربما أدعه يبقى تحت قدميك."

"هذا اذا جلس فترة طويلة ساكنا. ألا تشاركانني تناول السندوتشات، انها لذيذة؟"

كان مارك غارقا في مقعده ممسكا كأسه، وهز رأسه بالرفض، بينما استند ستيليو بظهره الى حائط الشرفة، والقلق يتراقص في عينيه، وتحدوه الرغبة لأن يبدأ العمل على قماش الرسم، ويقول لنفسه "إنها فتاة جذابة كأي فتاة ايطالية. ولاحظ ضوء البحر وهو يبعث أشعته على الشرفة، في هذه اللحظة من وقت الأصيل. قال:

"هل تأذن لي يا سنيور بأن أرسم الصورة هنا في الشرفة. أحس أن السماء والجبال تمثلان أروع خلفية لصورة رافينا!"

تطلع مارك بعينيه الى رافينا وقال:

"يعجبني ثوبك يا رافينا. هل يمكنك ارتداؤه عند رسم صورتك؟"

"كما تشاء يا مارك."

قال ستيليو مقترحا:

"وشعرها مسترسل وقد تطاير قليلا في مهب الريح."

راحت رافينا تراقب الشمس وهي تحترق في الأفق، وبعد قليل اقترحت الدخول الى البيت، فقد أحست بالبرودة تشيع في الجو.. قال ستيليو:

"لا شك أنك تعرضت لرياح الجبل بعدما غابت الشمس."

قالت رافينا:

"هناك نار في مدفأة الصالون."

حملت رافينا الظبي، وساروا جميعا الى الداخل، وكانت ترجو الا تشاركهم دونا جوكاستا طعام العشاء، وتحققت أمنيتها، وأقبلت بابتيستا وقدمت ورقة لمارك ثم غادرت المكان، قرأها بتجهم ثم ألقى بها في النار، وسأل رافينا وضيفه أن يسمحا له بالانصراف لعدة دقائق.

وخيم الصمت على الصالون لمدة وجيزة، قطعه صوت تكسر
الخشب المحترق في المدفأة. سألها ستيليو:
"كيف تسير أمورك مع الباردونا العجوز؟"
نظرت اليه رافينا بتأمل وقالت:
"انها لا تسير سيرا طيبا. اصيبت بخيبة أمل عندما
تزوج مارك بأجنبية. أظن أنها كانت دوناتا، وهي
دائما تعقد مقارنة بيني وبينها."
قال ستيليو بهدوء:
"ليست هناك أية مقارنة."
ركعت رافينا على ركبتيها فوق السجادة، ومدت يدها
تلتمس الدفء من نار المدفأة وقالت:
"أعرف ذلك. كانت دوناتا جميلة، كما أنها كانت تتمتع
بكل أسباب الكياسة."
ساعدها ستيليو على الوقوف على قدميها وراح يتأملها على
ضوء اللهب ثم قال لها:
"لكنك تتمتعين بجمال الروح يا رافينا، في كمال المقياس،
ولديك جمال الجسم."
قالت:
"ستيليو .."
وجذبت نفسها من يديه مذعورة. كانت تخشى
ظهور مارك المفاجيء، فيراها على مقربة من الفنان
المليح الوجه، وأردفت تقول:
"أريد أن نكون أصدقاء، ومن المستحيل أن تتفوه بمثل هذه
العبارات التي لا يحبها مارك."
قال بهمس:
"هل أتظاهر بعدم وجود أمس، فيه رأيتك أسعد حالا من اليوم؟
هل تشعرين بالسعادة عندما يغيب زوجك عن البيت؟"
واحست أنه يطرق الحقيقة فقالت له:
"ليس من حقك أن تقول أشياء مثل هذه. لقد
سألك مارك أن ترسم لي صورة لا أن تقوم بدور محلل
نفساني لي."
"الفنان يتعلم قراءة لغة العيون، والعيون نافذة تطل على

الروح. كم تمنيت أن تكون دروبنا التقت قبل أن
يطرق مارك باب حياتك. أظن يا مادونا أننا، أنت
وأنا، كنا سنعثر على الشيء الكثير الذي نستمتع به سويا."
قالت بحزم:
"أعتقد أنك تجاوزت حدود كرم مارك. أنا لست واحدة من
زبائنك التي تستهويها مغازلة فنان مليح الوجه مثلك وأظن
أنه من الأفضل أن نلغي جلساتنا."
قال بهدوء:
"أظن أنك ستندمين."
"أندم؟ ماذا تقصد؟"
"أعتقد أنك بحاجة الى صديق، ولم أفترض أبدا أنك تشبهين
واحدة من النساء الأخريات اللواتي جلسن أمامي. ان
سعادتهن تبلغ درجة عالية عندما يقوم فابريزي برسم
صورة لهن، ومغازلتي لهن ترضي غرورهن. أما أنت فشخصية
مختلفة تماما. أنا معجب بك، وأريد أن أرسم صورتك لأنك
صورة للتحدي، وأدهشني كثيرا عندما أسائل نفسي هل في
وسعي أن أنقل الى القماش هذا السحر الذي أراه في عينيك،
وجوهر الحزن الذي يشوبهما، وهل يمكن أن يكون الأمر غير
ذلك، وأنت شابة تعيش مع زوجها ويشارككما الحياة شبح
امرأة أخرى."
تطلع كل واحد منهما الى الآخر حينما فجأة توهج لهيب
النار وكشف لها الحقيقة واضحة فحاولت رافينا أن تبدو
مثل المضيفة الفخورة ببيتها. قالت له:
"هذه الغرفة جميلة. أليس كذلك؟"
وراحا يتبادلان الرأي حول النقوش المرسومة على السقف،
عندما رأت مارك يقبل عليها، وشاهدت مسحة من التجهم
ترتسم على جبينه، وأدركت أن دونا جوكاستا بعثت
الضيق في نفسه، ولكنه سرعان ما تخلص من مزاجه
المنحرف، وبدا جذابا وهم يتناولون الطعام، وحاول أن
يذكر رافينا كيف استطاع أن يجذب اليه جاردي عندما
كانا يتناولان الطعام في رافنهول، وراح يسرد عليهما قصصا
طريفة أشاعت في نفسها الضحك، وجعلتها تنسى ندوبه

المخيفة، فبدا لها ساحرا.

أخذت رافينا تعبث بأصبعها فوق حافة الكأس، ولاح لها أن هذه الغرفة الكئيبة لم تشهد منذ فترة طويلة ضحكات مجلجلة كما تشهد الآن ستيليو وهو يضحك بمرح. كان في ضحكه جذابا، تتلألأ أسنانه وسط بشرته الايطالية، وعليها أن تكون حريصة في الأيام المقبلة على ألا تظهر اعجابها للرجل الذي ستمضي معه في الشرفة أصيل كل يوم.

استعد ستيليو للرحيل فقالت له رافينا:

"احضر معك تيو. سيفتقدك كثيرا بحضورك وحدك هنا."

وجه ستيليو حديثه لمارك قائلا:

"زوجتك يا سنيور تتمتع بقلب حنون. انها تفكر أيضا في كلبي الصغير. سأحضره معي أحيانا، بعد اذنك."

قال مارك:

"طبعا."

ثم وضع يده حول خصر رافينا، وسقط نور مصابيح الباب فوقهما، بينما كان ستيليو يستعد للجلوس وراء عجلة القيادة، فالتفت اليهما وقال:

"وداعا."

وكان الليل ينبض بالحياة، بصوت محرك سيارته، ولكن الصمت خيم على الكون بعد رحيله، كان الليل ساكنا الا من همس خافت يجوب بين أشجار السرو، ووميض خفيف ينبعث من الزهور الغامضة التي تتبدل من اللون الأزرق الى اللون الأبيض، عندما يرخي الليل سدوله.

تمتم مارك قائلا:

"الزهور مثل أفكارنا، تتغير مع مجيء الليل. أنت صامتة يا رافينا وهذا يدعوني الى معرفة أفكارك."

قالت:

"أنا .. أنا أرجو أن تكون الأمور قد استقرت في المصنع."

"أجل .. انتهينا من موضوع الآلة الجديدة. بعض العمال يشكون من الآلات الحديثة. ألم أقل لك أن أهالي سردينيا يتمسكون دائما بالأساليب القديمة؟"

أصاب رافينا التوتر عندما شعرت بيده تتلمس شعرها،

فقالت:

"مارك .. أرجو ألا يكون قد نشب جدال بينك وبين جدتك!"

أجابها ضاحكا:

"هل تتصورين أننا لم نتبادل الكلمات من قبل. اننا نتميز بالعزيمة القوية، وبالطبع لا بد من الجدال، كل منا مولع بالآخر، وسرعان ما ننسى، ونغفر. أخبرتها بأن سنيور فابريزي سيأتي الى هنا كل يوم ليقوم برسمك، فاتهمتني بالحماقة وسألتني أن أعهد برسمك الى فنان أقل شبابا وجاذبية من ستيليو."

وبحركة سريعة، أدار جسم رافينا حتى واجهته، وأحاط خصرها بذراعيه وقال:

"ان شرف بيت السردي يقوم على طريقة محافظته على زوجته."

قالت:

"لم أجد مشقة في فهمك، ولكن ماذا تفعل لو أنني خنتك. هذا اذا اكتشفت الأمر بنفسك؟"

وتلألأ نور المصباح في عينيه السوداوين وهما تتطلعان الى عينيها، ورأت في أغوارهما شيئا يخيفه، قال بهدوء:

"اذا تجاوز رجل حدوده معك، سأحطمه، سيفقد كل شيء ثمين لديه."

تطلعت رافينا الى وجه مارك ورأت نور المصباح يكشف الندوب الغائرة على صفحته والقسوة في كلماته، فتراجعت الى الوراء، وأحست ببرودة تهز كيانها، وخضرة عينيها تخفق عبر رموشها. سألته:

"هل ندخل البيت؟"

قال:

"أجل."

دخلا البيت، وأوصد الباب الكبير وراءه، ثم أمسك بيدها وسارا عبر الصالة التي تؤدي الى السلم، فأحست بيده دافئة وقوية وهما يرتقيان الدرجات، وتذكرت الليلة التي حملها فيها مارك الى برج القوس، والغضب يموج في أعماقه، أما هذه الليلة فان مزاجه يبدو أرق وهو ممسك بيدها،

كأنه يخشى أن تهرب منه·

٦- أدونيس جواد أسود

وعد مارك رافينا أن يقدم لها جوادا يكون ملكا لها تمتطيه وقتما تشاء، واختار لها مهرا أغبر، أبوه ذو فحولة يركض بجنون عبر تلال سردينيا· وكان المهر رقيقا، استطاع أن يربط أواصر الصداقة بينه وبين رافينا· وكان أدونيس الأسود هو الجواد المفضل عند مارك· وذات صباح هبطت رافينا الى الاسطبلات لتلهو مع المهر، وعلمت من صبي السائس أن أدونيس قد ألقى بصاحبه السابق أرضا، ووطأه بحوافره·

قال الصبي موضحا:

"أدونيس يحب ألا يضربه أحد بالسوط، ومارك لا يحمل أي سوط، ولهذا كان الجواد أليفا معه·"

وقفت رافينا على باب حظيرة أدونيس، تحمل قطعة من السكر في راحتها، وأشاح الجواد بأنفه، ورفض أن يقبل الرشوة من شخص ما زال غريبا عنه·

ضحكت رافينا وقالت:

"أيها الشيطان المتكبر، لشد ما أتساءل أي شخص تريد أن يمتطيك؟"

عندما كانت رافينا قاصرا تعيش تحت وصاية واحد من الفرسان، كانت تستمتع بركوب الخيل وهي ما زالت شابة صغيرة، تعلمته هي و رودري حتى أتقنته· وأصبحت الآن تمسك بمقود الجواد وتقوده وهي ثابتة الجنان فوق السرج فاستحقت أن تكون فارسة ممتازة، وقالت

اعجاب مارك عندما رآها تمتطي برشاقة فوميها المهر كدليل على تقديره لطريقتها في ركوب الخيل، وأدركت أن زوجها السرديني لا يعبر عن اطرائه بالكلمات وانما هو رجل عملي.

وبينما هي واقفة تتأمل أدونيس باعجاب، تناهى الى سمعها وقع حذاء يعبر فناء الاسطبل، فاستدار لترى مارك يرتدي سروال ركوب الخيل وقميصا أبيض اللون جعله يبدو أكثر شبابا ورياضيا في لباس الفرسان. و الحقيقة لم تعرف رافينا رجلا سليم البنيان دؤوبا زوجها، فهو يمضي ساعات طويلة يتفقد أعماله، ويعكف مكتبه على دراسة أوراقه الهامة حتى ساعة متأخرة، كما يعمل على انجاز شؤونه المحلية بنشاط ملحوظ.

ابتسمت وهي تشعر بالخجل يعتصر قلبها، ثم قالت:

"صباح الخير .. احاول أن أكسب صداقة أدونيس، و يبدو خجلا مني"

"أرجو الا تكوني حاولت دخول حظيرته، لقد أسيئت معا مرة، فاصبح يشك في أغلب الناس."

قالت:

"أكره التفكير في أن يكون أحد آلم مثل هذا الحيو المتكبر."

ارتسمت ابتسامة على شفتي مارك وهو يدلف الى حظيرة أدونيس، فناولته رافينا السكر الذي التهم الجواد، وهو يدفع عنقه في كتف مارك، ثم وضع السرج على متنه، واللجام في فمه، وأدركت تماما مدى التفاهم بينهما. انهما يقتسمان ألم الذكرى السوداء ويشتركان في الخطر الداهم الذي يتعرض له المرء اذا ما راودته فكرة الاقتراب منهما.

ثم سمعت وقع حوافر مهرها على أرض الاسطبل، بعد خروجه من حظيرته، وقد أعد السرج على ظهره استعدادا لرياضة الصباح، فأسرعت الى امتطائه، وتألقت شمس الشروق فوف شعرها الذهبي، وسرح المهر الذي انتصبت أذناه، واهتز لجامه، وكأنه يقول لراكبته "هيا بنا .. دعينا ننطلق".

استدارت لترى ما اذا كان مارك امتطى جواده، فتبينت انه استقر فوق ظهر الحصان، وأرخى حافة القبعة فوق وجهه الأسمر، وغادرا فناء الاسطبل وانطلقا الى رحاب الريف. وأحست رافينا بالحرية وهي تركض بجوادها عبر الأرض الشاسعة، رغم وجود مارك الى جوارها. هناك سحر يكسو الكون ... في رائحة العشب، وقطرات الندى التي تتألق فوق ميدان الحشائش، وسيقان الأشجار الشوكية، وبعد قليل سوف تستنزف الشمس بيد حانية الألوان من الحشائش والزهور البرية.

كان قلب رافينا يشدو بأغنية غريبة، نصفها مرح، ونصفها الآخر دهشة، اذ أحست أنها قريبة من دنيا السعادة، وخيل اليها أن الريح تلهب سياطها فوق شعرها فانطلقت بجوادها تسابق مارك على أرضه التي يعرف فيها كل شبر، وكل صخرة، وكل شجرة زيتون. وسألت نفسها: هل تريد الهروب منه؟ والتفتت تنظر اليه، فرأت ابتسامة تكشف عن أسنانه البيضاء وسط وجهه الأسمر، وقد كبح جواده عن المضي في الجري، تاركا اياها تعتقد أن في وسعها الهرب منه، واندفعت قبعته لتسقط وراء رقبته فبدا لها في صورة قاطع طريق يتعقب خطاها، وتولتها رعدة من الخوف سرت في أوصالها، رعدة دفعتها الى أن تحث مهرها على الاسراع وتشبثت ركبتاها بالسرج، وهو يتخذ طريقه الى غابة الصنوبر الكثيفة، وعندما تناهى الى سمعها صوت الحصى وهو يتناثر تحت وطأة حوافر أدونيس، كان المهر قد بلغ الممر الطحلبي المؤدي الى داخل الغابة، ثم شمت رائحة الراتنج الصمغية المنبعثة من الأشجار، ويبدو أنها خدرتها هي ومهرها. وحينما بلغت رافينا موقع جدول يتدفق فيه الماء عبر الغابة، توقف المهر فجأة، فاهتز جسمها فوق السرج وانتابها دوار، وتقطعت أنفاسها، ولفتها ظلال أشجار الصنوبر، ونظرت حولها فرأت مارك في محاذاتها. قالت لاهثة:

"هذا .. هذا الماء، أهو صالح للشرب يا مارك؟"

قال:

"انه يتدفق من الجبال .. عذبا .. صافيا."



رمقته بنظرة سريعة، ثم انزلقت بجسمها من فوق السرج، وأسرعت تركع فوق ضفة الجدول، واستخدمت راحتيها لتنهل بهما الماء، وكان باردا كأنه مثلج، وطفقت تستعذبه وهو يجري لذيذا عبر حلقها. سألت مارك وهو يترجل من فوق حصانه ويسند ظهره الى شجرة صنوبر:

"ألا تشعر بالظمأ؟"

قال:

"في وسعي أن أحتسي قليلا من القهوة."

وشعرت أنه يتطلع اليها وهي جالسة على حافة الجدول تجفف يديها، ثم أردف يقول:

"أتحبين الذهاب الى مطعم صغير أعرفه حيث نتناول طعام الافطار؟ انهم يصطادون السردين مباشرة من البحر، ويعدونه مشويا أو محشوا بالخضرة."

قالت:

"أنا جائعة. ان ركوب الخيل يفتح شهيتي."

"أنت تحبين ركوب الخيل .. أليس كذلك يا رافينا؟"

قالت:

"لم أمتط جوادا رائعا مثل هذا المهر."

ورمقت المهر بشغف، ثم أردفت تقول:

"أحب رائحة الصنوبر، انها نقية منعشة طلقة مثل ركوب الخيل السريع عبر الريح والماء البارد، وكل شيء له لذعة قارصة."

وتطلعت الى مارك ورأت لمعان أسنانه وعلى شفتيه ابتسامة، وأدركت أنهما وحدهما. إنه زوجها ومع ذلك هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يدغدغ أعصابها، وقد بدا جسمه واضحا لها. انه عريض المنكبين، وتتراقص الرغبة تحت قميصه الأبيض، وأطرافه طويلة، وأضاف حذاؤه الذي يصل الى ركبتيه سمة القوة الى هيئته، وكان لا بد لها أن تمر بجواره كي تصل الى مهرها، فأخذ قلبها يدق وهي تنهض واقفة واتخذت سبيلها نحوه.

مد يده في تراخ، وجذبها نحوه، ونفذت يده الأخرى في أغوار شعرها المتطاير، وفجأة اشتدت قبضته عليها وهو

يتحدث اليها:

"قبلتك تبدو وكأن الثلج يسري في عروقك، بينما تبدو النار في نظرة عينيك. ما من مرة يا رافينا خلال الأسابيع التي أمضيناها سويا شعرت بالدفء في قبلتك."

قالت والبرودة تشوب نبرة صوتها:

"منحتك كل ما يمكن أن أعطيك إياه. اذا كنت تريد الحب يا مارك كان الأحرى بك ألا تجبرني على الزواج منك."

سألها وفي صوته نبرة سخرية:

"هل كنت تصيخين السمع لي لو غازلتك بالطريقة التقليدية؟ ماذا كان تفكيرك عندما التقينا لأول مرة؟"

أحست بنبضات قلبها تخفق قريبا من قلبه، وأدركت أنه يشعر بهذه الدقات المجنونة حينما قالت له:

"كنت أرجو أن تذهب بلا عودة."

لمس وجهها وراح يتحسس العظام الرقيقة أسفل بشرتها الناعمة وسألها:

"كأن الشيطان قام بزيارتك. أليس كذلك؟ هل كنت أبدو شيطانا أمامك يا رافينا؟ هل بعثت الشقاء في نفسك؟ منذ لحظة وجيزة كانت عيناك تتألقان؟"

قالت: "أنا .. أنا أحب أن أمتطي مهري. من الأفضل أن تعطيني جوادا، أستطيع أن أمتطيه جيدا."

"لابد أنك تعلمت ركوب الخيل منذ طفولتك."

"أجل .. جاردي كان دائما يعاملني وكأنني ابنته، وما تعلمه رودري، لم يكن ضنينا علي به. ذهبنا سويا الى مدرسة تعلم ركوب الخيل."

"هل عشتما مع بعضكما البعض فترة؟"

وتطلعت اليه، ولمحت القسوة في عينيه، وقالت له:

"كما أخبرتك من قبل يا مارك. انني لا أستطيع أن أمحو ذكرى رودري من عقلي. كما عرفته كان مرحا، أنيقا في زيه العسكري، وجذابا."

قال مارك بنبرة مريرة متسائلا:

"جذابا؟ هيا بنا ودعينا نتناول طعام الافطار."

وقاما بامتطاء الجوادين، وقفلا عائدين من غابة الصنوبر.

وكانت الشمس دافئة وهما يمضيان في الممر المؤدي الى الفندق الصغير القائم فوق التل المطل على الشاطىء· وكانت جدرانه الخشبية بيضاء، وسطحه منحدرا قليلا، وله حديقة تناثرت فيها أشجار الكروم والجميز، وشجرة توت كبيرة صفت الموائد تحت أغصانها·

قادهما شاب خجول الى احدى الموائد، وكان يتحدث بانكليزية مكسرة، سريع الحركة، أطاح الملاحة وهو يفرد الفوطة، ويضعها على حجر رافينا وقال:

"اجل ·· أجل يا سيدي ·· سيأتي السردين طازجا من البحر مباشرة·"

وظهرت في الحديقة شابة حافية القدمين، ترتدي ثوبا قرمزي اللون، وتحمل فوق كتفها سلة مملوءة بالسمك، منحت مارك ابتسامة سريعة، ورمقت رافينا بفضول ثم قالت:

"صباح الخير يا سيدي، هل أتيت لتتناول السردين المشوي، كما كنت تفعل في الأيام الخوالي؟"

"أجل يا سانتوزا· أحضرت زوجتي لتأكل ألذ طعام افطار موجود في كل سردينيا·"

قالت سانتوزا:

"لطيف منك أن تقول لي ذلك يا سنيور·"

ومنحته الشابة انحناءة احترام، وأدهش رافينا جرأتها ونظراتها الضاحكة وقد أضافت بلوزتها الزرقاء وتنورتها القرمزية الحيوية لشبابها، كما لاحظت أنها تنظر الى مارك وكأن بينهما صداقة قديمة·

حملت سانتوزا السلة الى الفندق، وطلب مارك كوبين من اللبن ليحتسياه حتى الانتهاء من طهي السمك، وأتت سيدة عجوز بالكوبين، وكانت ترتدي وشاحا أسود اللون فوق رأسها شأنها في ذلك شأن كل جيلها المسن· قالت بالانكليزية:

"أتذكر يا سيدي عندما كنت تحضر معك ابنك، هذا الصقر الصغير الشقي ليحتسي لبننا·"

··· ثم أضافت قائلة بالايطالية:

"كوزي ايستا لافيتا"

ثم طفقت تجوب بنظراتها لتتأمل رافينا، فأدهشها لون شعرها الأحمر وبشرتها البيضاء، وأردفت تقول بالانكليزية:

"انها قطعة رائعة الجمال· لا بد أنها تدير رأس أي رجل، ولكن من الأفضل أن تقترن بواحدة منا·"

وراحت تتمتم وهي تغادر المكان، وتركت وراءها رافينا مشدوهة، وسألت مارك:

"انها تعني ·· هكذا هي الحياة!"

وكان الكلمات التي تفوهت بها العجوز أعادت الزمن القهقري، وتذكر مارك بوضوح عدد المرات التي جاء فيها الى الفندق، بصحبة فتاته ذات الشعر الأسود لتتناول معه طعام الافطار، وبعد مدة كان يأتي معهما ابنهما الصغير ·· الصقر الصغير الشقي·

احتست رافينا رشفة من اللبن، وراحت تبحث عن شيء تقوله، أوه، لماذا أتى مارك بها الى هنا؟ لماذا ··· وهذا المكان يحمل ظلالا من الذكريات، وقد يحدث أن يسمع ضحكات طفل تواري وراء أشجار الكروم والجميز· قالت:

" مارك "

ولكنه قاطعها قائلا:

"كل شيء على ما يرام يا رافينا· أشكرك على تلك النظرة التي تجول في عينيك ·· الشفقة من أجل الطفل· كان يحلو له المجيء الى هنا، والاختباء وراء الأشجار، ورش الماء من النافورة العتيقة، ولكن الذكريات لا يمكن محوها كما تقولين، كما أنه لا يمكن الاختباء منها· ها هي ناتاليا تأتي بالسردين·"

أقبلت رافينا على الطعام بشهية، وهي تقول:

"لم أذق في حياتي مثل هذا السردين اللذيذ والخبز ما زال دافئا خرج لتوه من الفرن، والزبدة تسيح من شريحته·"

قال مارك:

"يبدو منظرك كالتلميذة الجائعة·"

حقا، كانت رافينا بشعرها المتطاير، وقميصها المفتوح وهي ممسكة بقطعة الخبز المدهون بالزبدة، لا تكاد تبدو

أنها زوجة، ولا يؤكد زواجها شيء سوى خاتم الزفاف الذي يزين يدها اليسرى. وأدركت أن مارك يعقد مقارنة بينها وبين دوناتا. لا بد أنها كانت هادئة وفاتنة ورشيقة، وشعرها الأسود ناعما، وعيناها على استعداد لأن تهبه ابتسامة خلابة، وصوتها الناعم فيه سحر وإغراء.

مسحت رافينا شفتيها، ولا ريب أنها كتمت الصرخة التي ندت من قلبها. لقد عرف مارك الحب، ولكنه حرمها الفرحة الممتعة لهذه العاطفة. كل ما لديه هو الرغبة فقط.

سألها:

"ماذا تريدين الآن أيتها العروس؟ هل ترغبين مشاركتي تناول فاكهة بيرسيفون؟"

راحت تراقبه وهو يقطع الفاكهة مناصفة ورأت العصير يجري فوق يده التي كستها الندوب، وأردف يسألها:

"هل تعرفين أسطورة بيرسيفون."

التهمت رافينا قطعة من الفاكهة اللذيذة وقالت:

"التقى بها أدونيس مصادفة وهي تقطف الزهور، وحملها معه الى قصره. هل تسمح لي بعد مضي ستة أشهر أن أعود الى عالمي .. مرة أخرى."

تطلع اليها مارك وقال:

"اذا كنت ترغبين في رؤية جاردي لن أقف دونك! أما اذا كنت ترغبين في رؤية رودري الجذاب فهذا شيء آخر!"

"أرجوك ..هل من المحتم أن يدور حديثنا عنه؟

قفزت رافينا واقفة على قدميها، وطفقت تتجول بين أشجار الجميز والكروم. وكانت عناقيد العنب صغيرة ومرة، وعثرت على عريشة تظلل مقعدا صغيرا من الحديد. جلست عليه، وأخذت أصابعها تلوي بعنف منديلها، ولم ترفع رأسها حينما أظلم المدخل بجسم مارك الفارع. قال:

"يجب أن نعود الى البيت."

وتذكرت بيتها في وطنها. وتواردت الصور على عقلها، عندما فكرت في العودة الى بيتها، الى غرفتها في رافنهول، بنافذتها الدائرية، وشرفتها الممتدة وكتبها، وخلوتها التي تطمئن اليها في أحضان الجدران البيضاء.

قال لها:

"تعالي."

وشعرت أنها وقعت في شرك، ولا سبيل لها للخروج من العريشة الا الوقوع في أحضانه، فصرخت قائلة:

"أكرهك، لن أشعر بشيء سوى الكراهية نحوك، ونحو القلعة، والريح التي تهز أشجار السرو. انها تبكي في الليل لاشيء سوى النحيب في الكازا سيبريسو! هل شعر هذا البيت يوما بالسعادة؟"

قال لها:

"ما زلت صغيرة."

وجذبها نحوه، ولما حاولت أن تنفلت هاربة من بين يديه، شعرت بقوته تجذبها ثانية، فقالت له:

"أنت تحب أن تثبت لي أنني لا أستطيع الفرار منك. هذا ما تحبه .. أليس كذلك؟"

ضحك بمرح. وجذب وجهها نحوه وتمتم:

"عيناك خضراوان .. وثائرتان .."

أشاحت بوجهها وهي تقول:

"لا تفعل ..."

وكانت تدرك أنه يحاول تقبيلها، فضحك ثانية، وجرت يده التي تكسوها الندوب على طول شعرها الأحمر وقال:

"هيا بنا نعود."

وصل ستيليو عقب الغذاء ليواصل رسم صورة رافينا، ولكنه بعد مضي ساعة ألقى بفرشاته، وخطا تجاه المائدة ليحتسي كوبا من عصير الأناناس المثلج الذي يحبه، ثم قال بتجهم:

"إنني أتحدى يدي اليوم. هل ترغبين في كوب من العصير؟"

هزت رأسها وهي تسترخي على سور الشرفة، وقد تبين لهما أن الظبي لن يظل هادئا أثناء الرسم، لذلك فضل ستيليو أن يرسمها وحدها بجوار السور، وساعده ذلك على مواصلة عمله. ألقى عليها نظرة فاحصة طويلة وسألها:

"ماذا يزعجك؟ غدوت غريبة على الابتسامة. انني أصر على أن ترتسم ابتسامة الموناليزا على شفتيك وأنا أرسم

صورتك٠"

قالت:

"المرء لا يستطيع دائما الابتسام٠ انني ٠٠ انني أشكو من صداع خفيف٠"

سار نحوها، بقميصه الأزرق الشاحب، وتطلع اليها بعينين تتلألأ فيهما أضواء كهرمانية اللون، وسألها:

"هل حقا أنت صادقة معي؟ ربما يكون قلبك يسبب لك ألما؟"

أجفلت رافينا لنفاذ بصيرته، ورأت أن عليها أن تكون حريصة مع ستيليو٠ فهو شخص جذاب، وعطوف٠ وفي هذه اللحظة أحست أنها في حاجة الى قليل من هذا الحنان، والى كتف تريح رأسها عليه، لمجرد لحظات قليلة٠ ولم تحتمل نظرات الغواية التي تلألأت في عينيه فأشاحت بوجهها بعيدا عنه وشخصت ببصرها نحو الجبال، ومياه البحر التي تجري تحت البيت، وكانت تنبض مثل نبض قلبها، في موجات متتالية، وكان الجو مشبعا بالحرارة، وكأن عاصفة تنذر بالقدوم، قالت:

"الجو ثقيل يدفعني الى القلق٠"

اقترب ستيليو منها وقال:

"انها الرياح الشرقية الحارة التي تهب من افريقيا، وهي تثير أعصاب أي شخص غريب٠"

قالت بحدة:

"كفى ٠٠ يا ستيليو٠"

"أريد أن أقول انها أثارت أعصابنا خلال الساعة الماضية٠ أنت تعيسة يا رافينا وأنا أعرف السبب٠"

ورسمت ابتسامة على شفتيها وهي تنظر اليه ٠٠ ثم قالت:

"لا تستطيع أن تعرف السبب بسهولة٠ أرجوك يا ستيليو٠ اصحبني في جولة بالسيارة٠"

قال والأضواء الكهرمانية تحترق في عينيه:

"على الرحب والسعة، ولكن ماذا عن زوجك؟"

"ان مارك في اجتماع مع صانعي الشراب، ولن يعود قبل ساعات، وأنا أريد أن أشعر بالريح تلفح وجهي٠"

قال:

"اذن، هيا بنا٠"

أمسك ستيليو بيدها٠ ومثل أطفال المدارس انطلقا يهبطان درجات السلم ويخترقان الصالة، ويغادران باب البيت، ولم يلحظ أحدهما السيدة ذات الرداء الأسود وهي تتلصص عليهما، واقفة في الرواق، بنظرات توحض ومضا سريعا، ثم هرعت لتفضي لسيدتها بأن البادرونسيتا انطلقت تجري من البيت يحدوها مرح القبرة، وهي ممسكة بيد الرسام الايطالي٠ وكان لون سيارته لوتس رماديا ٠٠٠ وأخذت تسابق الريح عبر الطرقات التي تخترق الجبل، وفي كل منحنى كانت رافينا تمسك أنفاسها، وتشعر أنها تطير في الهواء، ولن تفكر في ركوبها مرة ثانية، أما الآن فهي ترغب في أن تمتع نفسها، وكان ستيليو يهلل كلما لفحته نسمات الهواء، ويقول لها:

"انها منعشة أليس كذلك؟"

ضحكت قائلة:

"انها رائعة ٠٠ من الأفضل لك أن تكون سائقا لسيارات السباق٠"

قذفها بابتسامة سريعة، وقال:

"ان الريح تلسع شعرك بالسياط٠ ما رأيك يا رافينا أن نتوجه الى الساحل ٠٠"

"لا ٠٠ لا ٠٠ انه بعيد٠"

"ليست المسافة بعيدة وأنت تركبين لوتي٠ في وسعي أن أقدم لك شرابا مثلجا في مسكني، وسأعود بك في الساعة السادسة٠ هل أنت خائفة؟"

قالت ساخرة:

"منك ٠٠؟"

"لا ٠٠ وانما من زوجك٠"

ويبدو أن شيئا اعتصر قلبها، ودفعها الشعور بالخوف من مارك الى التمرد فقالت بلا اكتراث:

"يمكنك أن تقدم لي شرابا باردا٠ انتظر ٠٠٠ دعني أفكر ثانية٠"

قاطعها ضاحكا:
"أفلت الأمر من يديك. لقد بلغنا الطريق المؤدي الى الساحل!"
"كنت أود أن أقول لك انني أفضل احتساء عصير البرتقال."
وأخذت السيارة تطوي الطريق الناعم المحاذي للشاطىء، وانقضت فترة قبل أن يرخي الخوف أصابعه التي أنشبت أظافرها بصدر رافينا. كانت تدرك أنها ترتكب جرما تجاه مارك، وقررت أن تخفي عنه زيارتها لفيلا ستيليو. ما يجهله مارك لا يتسبب في قلقه.
أخيرا وقفت السيارة أمام فيلا رائعة الجمال، تقع في ميدان يضم عددا من المنازل الفاخرة، ورأت سلما أبيض اللون عربي التصميم يؤدي الى الشرفة. كان المنزل يبعث على الشعور بالبهجة، والمكان يناسب حقا فنانا غير متأهل.
وضع ستيليو مرفقه على عجلة القيادة وسألها:
"حسنا .. هل تدخلين الفيلا؟"
قالت:
"كيف لي أن أقاوم؟"
وانزلقت تغادر السيارة، واستدار هو من الجانب الآخر، لينضم اليها، وارتقيا السلم المؤدي الى الشرفة، وفتح الباب، ودخلا غرفة واسعة وباردة مليئة، وأريكة هلالية الشكل مكسوة بالقطيفة، وبعض الزخارف النحاسية، ودولاب للشراب فارسي التصميم، ولوحات ايطالية تزين الجدران، وولاعة على شكل بجعة فوق منضدة صغيرة.
قالت رافينا بابتسامة:
"أنت مترف."
نظر اليها بجسارة وقال:
"كنت شابا محروما. ذقت الفقر والحرمان في مطلع حياتي. اجلسي من فضلك، وسوف أسكب لك شيئا."
قالت بخفة:
"أريد أن أحتسي عصير البرتقال."
ثم جلست في أحد المقاعد الوثيرة، وامتزج لون فستانها الأصفر بلون قماش القطيفة البرتقالي الذي يكسو المقاعد،

ووضعت يدها على شعرها لتسوية خصلاته، وألقى ستيليو نظرة عليها قبل أن يتوجه الى دولاب الشراب وفتح أحد مصراعيه، وقال:
"لم يعد عندي عصير البرتقال .. ألا تثقين بي؟"
قالت:
"أفضل أن أحتسي مقويا ممزوجا بالثلج."
تطلعت الى خاتم الزفاف الذي يزين يدها اليسرى، ثم تفرست في ستيليو وسألته:
"هل تعيش وحدك هنا يا ستيليو؟"
"أجل .. ألا تشعرين بالأسف لي. هناك سيدة تأتي لتنظيف البيت وتلميعه وتقوم بطهي الطعام اذا دعوت بعض الضيوف، ولكنني اعتدت أن أتناول عشائي في المطعم."
قدم لها الشراب الممزوج بالمقوي في كأس على شكل زهرة التيولب، ثم سألته:
"دائما وحدك؟"
جلس على الأريكة الهلالية الشكل، ومد ساقيه حتى تقاطعا، ورفع كأسه بيده وقال لها:
"في صحتك! ان الرجل يعتاد على الوحدة، ولكن يوجد علاج واحد لها. في أي حال هل أبدو لك أنني من النوع الذي يستطيع أن يعيش حياة الرهبان؟"
ابتسمت وهزت رأسها وقالت:
"كنت دائما أعتقد بأن الايطاليين يتزوجون في سن مبكرة ليكون لديهم عائلات كبيرة."
قال:
"لكل قاعدة شواذ. خذي نفسك مثلا. أنت فتاة جميلة .. وتتزوج ضد رغبتها."
تجمدت الابتسامة على شفتيها وقالت:
"ما جئت الى هنا لنتحدث عن زواجي وانما أتيت .."
قاطعها قائلا:
"لتنسيه لفترة. لا داعي للتظاهر معي. رأيتك على حقيقتك وأنا أقوم برسم صورتك، وكيف يبدو شكلك عندما ينضم مارك دي كورزيو الينا ونحن على الشرفة في

الكازا، كأن الضوء يهرب من عينيك، وكأنك تتخلين عن نفسك٠"
وضعت كأسها على المنضدة٠ وقفزت واقفة على قدميها، وقالت:
"كفى، ما جئت الى هنا لتقوم بتحليل زواجي، أو مناقشة مشاعري الشخصية٠ ليس هذا من شأنك٠"
قال:
"هل تظنين ذلك؟"
ثم وقف بدوره ورأت سمة الجدية في نظراته، ثم أردف يقول:
"التقينا على الشاطىء، وكنت جذابة، والتقيت بك ثانية في بيت دي كورزيو ورأيت فيك فتاة تختلف تماما عن تلك الفتاة التي توجهت معي الى الكهف٠ في كل يوم منذ التقينا وأنا أحاول أن أنقل الأضواء الضاحكة التي تتلألأ في عينيك الى اللوحة لكن هذا مستحيل! انها لم تعد هناك شيء غامض يحاول أن يقمعها!"
وتجرع بقية الشراب ثم استطرد يقول:
"سيدتي، هل تتصورين أنني أحمق؟ هل تظنين أنني خبرت هذه الدنيا قليلا فلا أدرك حقيقة المرأة التعسة عندما يقع بصري عليها؟"
"وهل تظن أنني جئت الى هنا لتقدم لي العزاء؟ وهل هذا هو الأسلوب الذي يستجيب به زبائنك التعساء الى سحرك؟"
قال لها:
"لكنك صرحت لي بأنك تعسة؟"
وقام ليتناول سيكارة، ثم توجه ليغلق الأبواب الزجاجية التي كانت تسمح بدخول نسمة حارة جعلت رافينا تلهث أنفاسها، ولما عاد وقف الى جوار كتفها؛ شعرت بالتوتر، ولم يكن سبب توترها خوفها من دافع غريزي منه، وانما كانت تشعر بنوع من الود يضيفه عليها؛ والحنان يعتبر أخطر عاطفة عندما تكون المرأة في حاجة اليه٠ قالت:
"كل شيء يسوده الهدوء حتى جمع الحصاد هدأ، والأشجار نسجت خيوطها بزرقة السماء الحارة٠"
تمتم قائلا:

"كم أحب سماع بلاغة وصفك٠ لديك سمة تصيب المرء بالهوس لم أجدها من قبل في أي امرأة أخرى٠"
"هل عرفت نساء كثيرات يا ستيليو؟"
"أنا في الثانية والثلاثين من عمري، وفنان له مكانته، لا بد أن يتعرف بالناس٠"
"أنا آسفة أنك تلقى المتاعب بسبب صورتي، وربما تنفض يديك منها قريبا٠"
"يجب أن أتخلى عنك لأتخلى عن الرسم٠ لقد فتنت بجمالك يا رافينا٠ أرجوك لا تغادري المكان٠ انني لن ألمسك، ولا أجبرك على أن تشاركيني مشاعري٠ أنا أعرف أنك فتاة وفية لزوجك حتى لو لم تشعري بالحب نحوه٠ ذات يوم ٠٠ ربما ٠٠ سوف تفضين لي بسبب زواجك منه٠"
تولتها رعدة خفيفة٠ ربما كان السبب زمجرة الريح، أو وميضا في السماء دفعها الى أن تتراجع عن النوافذ، وجعلها تقترب من ستيليو ليصطدما برفق٠ أغمضت عينيها واندفعت ذكرى جاردي الى عقلها٠ كان رقيقا، وحانيا عليها، واعتاد أن يقبلها في وجنتها حين عودتها من المدرسة٠
طفرت الدموع من عينيها، وانسابت على وجنتيها، بينما كانت السحب تبرق خارجا، وهدير المطر يتدفق من عنان السماء، ويتطاير رذاذ منه على زجاج الأبواب المفتوحة، فسحبها بعيدا، وأظلمت الغرفة، وبدأ الهواء يهب بعنف٠ مسحت رافينا وجنتيها المبتلتين، وفتحت عينيها تشاهد العاصفة، وقالت:
"ما كان يجدر بي أن آتي هنا٠ الى متى سيدوم هطول المطر٠ أرغب في العودة الى البيت يا ستيليو٠"
فنظر اليها مأخوذا وقال:
"لا أستطيع أن أعود بك في مثل هذا الجو -أنت لا تعرفين كم هي سيئة طرق الجبل حينما يكسوها المطر- اهدأي وكوني ظريفة٠ ان المطر المنهمر لا يدوم طويلا، وسأعود بك بأسرع ما يمكن٠"
راحت رافينا تقطع الغرفة جيئة وذهابا، وهي تسائل

نفسها: لماذا وافقت على المجيء معه؟ أدركت أنها أخطأت ووقعت في شراك العاصفة، ويبدو أن غضب المطر لن يتوقف.
قال لها:
"اجلسي".
وسكب لها شرابا طازجا، احتسته، وشعرت برأسها يسبح بخفة، والحرارة تدب في أوصالها. وزاد وجيب قلبها. كانت خائفة على نفسها وعلى ستيليو. قالت:
"مارك سيغضب. انني لن أخبره بمجيئي معك الى هنا."
مال ستيليو نحوها وقال:
"ماذا في وسعه أن يفعل؟ علام يغضب اذا علم بالحقيقة .. بأننا شربنا .. بأننا تحدثنا ... بأننا أصدقاء."
"من الصعب تعليل هذا التصرف."
"حاولي يا رافينا .. دعيني أفهم السبب الذي يدفع فتاة مثلك أن تعيش في خوف من رجل. من واجبه أن يشعر بالحب نحوك، وأن يرغب في اسعادك."
حاولت أن تبتسم ولكن محاولتها باءت بالفشل.
سألها ستيليو:
"ألا تخطئين فتتصورين الحب .. جاذبية."
قالت متسائلة:
"حب؟!"
وحدقت في المطر المنهمر، كأنه سياط تلهب أرضية الشرفة، فسارع ستيليو الى غلق الأبواب الزجاجية، فتوقف تيار الهواء. قالت رافينا في هدوء:
"عندما يوجه القدر حياتك بقسوة، يتوقف ايمانك بالحب. لم يطلب مارك مني حبي مطلقا ولم يسألني الزواج منه الا امتثالا لأسلوبه معي."
أمسك ستيليو بيدها اليسرى، وتحسس خاتم زفافها، وقال:
"لماذا؟ ألأنك شعرت بالشفقة نحوه؟ ألأنك لا تحتملين أن تكوني سببا في ايلام رجل سبق أن لحق به أذى؟ رافينا ان زواجك منه يعد تضحية!"
بدا وجهها في ضوء العاصفة مستغرقا في التفكير

وعيناها مثل البرك الموحلة بالطين. أجل انها تضحية، ولا يمكن انكار هذه الحقيقة، ومع هذا فانها لا تسمح لستيليو أن يعزف على لحن حاجتها الى الحنان، وعليها أن تحارب هذا الضعف الذي تشعر به في أعماقها، والا سيصير مصيرها الارتماء في أحضانه. قالت:
"عندما كنت طفلة وكان المطر يحول دون خروجي اعتدت أن أردد أغنية يا مطر ... يا مطر ... ارحل بعيدا، وعد ثانية في يوم آخر. فهل تظن أن سحري سوف يفلح؟"
قال وأصابعه تقبض على أصابعها:
"أعتقد أن هناك فرصا تتحقق فيها الأمنية، ولم يحدث أن التقيت شخصا في وسعه أن يلقي بسحره مثلما تفعلين."
وفي هذه اللحظة ترددت أصداء رنين أجراس الباب في أرجاء الفيللا، وزمجرة الرعد، وتألق البرق في عيني ستيليو عندما راح كل منهما يحدق في الآخر. كانت عيناه تنذران بهجوم مباغت تردد صداه عبر عيني رافينا.

٧- ليلة العاصفة

سأل ستيليو متجهما:
"من يطرق الباب في مثل هذه العاصفة؟"
ونهض واقفا عندما دق الجرس مرة أخرى، وأردف يقول:
"لا بد أن أجيب على الطارق يا رافينا."
قالت:
"بالطبع."
والتقت عيناهما، وراودهما سؤال واحد فهز ستيليو كتفيه في استخفاف وخطا خطوات واسعة، وأرهفت رافينا سمعها علها تلتقط صوت الزائر حينما يفتح ستيليو الباب. وشعرت أنها مذنبة، فالاتهام الذي سيوجه لها و لستيليو بأنهما عاشقان. وأن مارك جاء سعيا وراءها. وشخصت ببصرها نحو الباب حينما لاح لها شبح طويل بلله المطر وقد وقف عند المدخل. وتحققت مخاوفها العميقة.
قال صائحا:
" رافينا "
وكانت قطرات المطر تتساقط من فوق شعر مارك الأسود لتستقر على عينيه وطفقت نظراته تفحص جسمها النحيل الغارق في المقعد الواسع المكسو بالقطيفة. ولم تستطع رافينا أن تحرك ساكنا. وتركزت عيناها على وجهه الصارم.
لم تصدق عينيها في بادىء الأمر، ولكنها كانت حقيقة

واقعة أن مارك جاء بحثا عنها.
سار الى الغرفة يتبعه ستيليو الذي بدا صبيا الى جوار مارك، ونفر عصب في أحد صدغيه عندما استدار ليواجه الرسام. قال مارك بصوت بارد تشوبه مرارة الغضب:
"أحب أن تقدم لي تفسيرا لهذا الموقف، ماذا تفعل زوجتي هنا؟"
كسا المطر الشرفة ودقت الساعة معلنة الوقت وكأنها تريد أن تنبه رافينا بأن مكانها في هذه اللحظة يجب أن يكون في بيتها وليس الاستكانة الى فتان فاسق.
سألت مارك:
"ماذا تفعل هنا؟ هل رآني أحدهم وأنا أغادر الكازا مع ستيليو؟ هل جئت الى هنا لتأخذني بعيدا؟"
رمقها بنظرة سوداء وقال:
"لا ... تخربت عربتي في مكان ليس بعيدا من هنا، وأعرف أن ستيليو فابريزي لديه تلفون فجئت أستأذن منه الحديث الى الكراج. ولم يكن لدي أدنى فكرة أنني سأجد زوجتي مع السنيور."
مضت لحظة من لحظات الصمت التي تبدو فيها البراءة وكأنها آثمة، ولم يقطع الصمت سوى صوت المطر المنهمر ولم تستطع رافينا أن تقاوم رغبتها في أن تختلس النظر الى ستيليو، ولما حاول ستيليو الكلام بدت نبرته وكأنها تؤكد كل مظاهر الاثم.
قال ستيليو:
"كان الجو شديد الحرارة والرطوبة فرأينا أن نقوم بنزهة في السيارة. إنني السبب في دعوة رافينا للمجيء الى هنا لتناول بعض المشروبات. ولما وصلنا فاجأتنا العاصفة وحاولت أن أقنعها بأنه من الجنون قيادة السيارة عبر الجبال وسط هذا السيل المنهمر. لو أن العاصفة لم تحدث..."
قاطعه مارك قائلا:
"لكنت حملتها عائدا الى البيت دون أن أعرف أنها كانت هنا بصحبتك."

ونظر الى رافينا بنظرات مبهمة مدركا أنها كانت ستكتم ما حدث وعندما تقدم خطوة نحوها، تراجعت والذعر يتملكها، وكأنها تخشى أن يلمسها وقالت له بتحد سافر:

"هل نخلق من هذا الأمر مأساة؟ احتسيت كأسا ولم يكن سوى مقو بالثلج."

ولمح مارك كأس التيوليب فوق المنضدة الواقعة الى جوار المقعد الذي تجلس عليه، فالتقطها وراح يتشممها. وأعاد الكأس الى مكانها وسأل ستيليو:

"هل فرغت من رسم صورة زوجتي؟"

أجاب ستيليو:

"فشل الرسم فشلا ذريعا. ظننت في البداية أن رافينا موضوع سعيد يصلح للرسم، ولكني الآن عرفت أنها امرأة تعسة ولست أستطيع أن أنقل الى القماش حقيقتها. ليس في وسعي أن أفعل المزيد من الرسم مثلما عجزت أنت على أن تستحوذ على قلبها يا سنيور دي كورزيو."

واجه الرجلان كل منهما الآخر حينما تألق بريق ضوء عبر الغرفة، فتطلع مارك اليه وقال ساخرا:

"هل تتصور أنك استحوذت على قلبها؟ أنت تخدع نفسك يا سنيور. إن الرجل الذي يستحوذ على قلب رافينا بعيد من هنا. يمكنها أن تغفر له خطاياه، والمرأة تستطيع أن تفعل ذلك من أجل الرجل الذي تحبه."

وتطلع ستيليو نحوها وبدت الحيرة في عينيه وقال:

"رافينا"

قالت وهي تتطلع الى مارك:

"أرجو العودة الى البيت. لن أخشى طرقات الجبل، اتصل بالكراج هاتفيا ودعهم يصلحون سيارتك."

قال ستيليو بصوت حاسم:

"خذ سيارتي. اليك المفاتيح. سوف أستأجر زورقا يحملني غدا الى الكازا لأجمع أدوات الرسم سوف أعود بسيارتي الى بيتي."

وكان ستيليو يتحدى مارك في أن يقود السيارة

اللوتس في خضم العاصفة، ويخترق بها الطرقات التي تتعرض لانهيار التربة نتيجة للسيل المنهمر ثم انتقل ببصره الى رافينا وكانت عيناه جامدتين.

ولم تتفوه رافينا بكلمة. كانت واثقة أن مارك سوف يقبل التحدي اذ قال لستيليو:

"هل لك أن تعير زوجتي معطفا؟"

وأحنى الرسام رأسه بالايجاب، وغادر الغرفة ليحضر معطفا.

وحرك مارك مفاتيح السيارة بيده، وسأل رافينا:

"هل أنت عصبية؟"

"وهل يهمك لو كنت عصبية؟"

وحملق فيها وبرق ضوء غريب في عينيه وقال:

"أنا معجب دائما بشجاعتك. الأمر الوحيد الذي لا يمنع دهشتي هو أن فتاة لها مثل شجاعتك تقع في حب جبان."

وتوقف مارك عن مواصلة الكلام حينما عاد ستيليو وهو يحمل معطفا واقيا من المطر. وكانت عيناه مضطربتين وقال:

"سنيور، ألا تمكث هنا حتى تهدأ العاصفة. هناك طعام في الثلاجة."

أمسكت رافينا المعطف وقالت:

"ستيليو، عندما يصدر مارك قرارا لتنفيذ امر ما، فلا أحد يمكنه أن يثنيه عن عزمه. اذا سألتك يا مارك ... كلا لن أتوسل شيئا ..."

وسارت الى الباب، وبدت نحيلة وهي ترتدي المعطف الفضفاض الطويل، وقالت:

"ألا نذهب يا مارك؟ سرعان ما يهبط الظلام."

واستمر هطول المطر بينما أخذت عجلات السيارة تغادر أرض الفيلا وحدقت رافينا بنظراتها عبر النافذة التي راحت المساحات تزيل الماء اللاصق فوق سطحها، وكان مارك يمسك عجلة القيادة بثقة تامة، ولم يتفوه بكلمة وانما كانت نظراته مثبتة على الطريق الممتدة أمامه.

وسار بالسيارة نصف ساعة، توقف بعدها عند مكان يجاور أرضا مزروعة بالحشائش تقع تحت الجبال، ثم

استدار نحو رافينا وتلألأ ضوء على وجهه المشوه بالندوب، وقال بوحشية:
"لا أستطيع أن أفعل ذلك."
وتطلع الى يديه اللتين تقلصتا على عجلة القيادة فبدت الحروق واضحة واستطرد يقول:
"سيكون من الجنون في مثل هذه الليلة."
وتركز بصر رافينا فوق وجهه، وأدركت أي ذكرى مخيفة تسيطر عليه بضراوة، وتحول دون مواصلة قيادة السيارة، فقد تذكر دريستي حينما وقع في شراك حطام السيارة الأخرى. وفجأة جذب المعطف عنها، فبدا جسمها صغيرا، وضائعا في ثناياه، وقال لها:
"يجب أن نمكث هنا قليلا. لا ... تذكرت الآن، يوجد كوخ راع على مقربة من هنا. تعالي، يمكننا أن نتناول عشاء من لحم الضأن المسلوق إذا أسعدنا الحظ."
وراحا يقطعان الحقل بسرعة تحت وابل المطر المنهمر وقد التفت ذراعه حول وسطها، بينما كان المعطف يتطاير في الهواء. ثم توقفا أمام كوخ يتكون من غرفة مستطيلة لها قبة مخروطية الشكل كالصنوبر، وعالج مارك الباب فانفتح بسهولة. كانت النار خابية ولا يوجد أي قدر فوق المدفأة، وكشف وميض البرق عن وجود أريكة خشبية عريضة عليها ربطة من فرو الغنم، وكرسي مستدير بثلاث أرجل، وهراوة مستندة الى الجدار، وهبت الرياح فاهتزت لها الهراوة وسقطت على الأرض، مما دفع رافينا الى أن تقفز بعصبية.
قال لها مارك:
"ادخلي"
وهو يشعل عودا من الثقاب، وطفق يتجول في الكوخ المهجور، ورأى بقايا شمعة مثبتة في فتحة زجاجة فأشعلها وتطلعت رافينا الى مارك وقد وقف يحمي لهب الشمعة بيديه من تيار الهواء. قال لها:
"اقفلي الباب."
قالت وهي ترتجف:

"هل تنوي المكوث هنا؟"
تركها ليغلق الباب بنفسه، ثم قال:
"ليس هناك بديل لذلك في الوقت الحاضر. انه مكان غريب يصلح لايواء اثنين في ليلة عاصفة كهذه. يمكننا أن نشعل النار .. هل تخشين من وجودك وحدك معي، في حين واتتك الجرأة للذهاب بالسيارة وسط العاصفة؟"
"انني أخاف من وجود فئران."
قال بابتسامة ساخرة:
"فئران الحقل .. لا تؤذيك."
وعثر على كوة في الجدار، وضع فيها الشمعة، التي راحت تلقي بضوئها على مارك وهو يسعى نحو المدفأة ليوقد فيها نارا. وقال:
"الخشب جاف، وسوف يحترق جيدا. تعالي يا رافينا. سوف نتمتع بدفء عائلي قبل أن ينبلج نور الصباح."
ودست يديها المضطربتين في جيوب معطف ستيليو، فلم يحدث لها من قبل أن انفردت تماما بمارك، حقا انه زوجها، ومع ذلك فهو الرجل الوحيد الذي يجعلها تشعر بالخجل، وتدرك ادراكا تاما أنها امرأة. وانتابها الوهن، فاستندت بجسمها الى الباب الذي كان يهتز تحت وطأة عصف الريح. قال لها مارك:
"لا تقفي هناك في مواجهة تيار الهواء. تعالي يا رافينا."
امتثلت لطلبه، وكأنها مسلوبة الارادة، وأحست بيديه تلمسان شعرها. فقال لها:
"شعرك مبتل من المطر. سأشعل النار حالا."
وكانت خصلات شعره تنسدل مبللة فوق عينيه، وأحست باغماءة خفيفة.
وعندئذ أدركت ما يريد منها في هذا المكان الغريب الذي يقع في البراري، وعندما بدأت ساقاها تتهاويان، قام سريعا برفعها الى الأريكة، وأرقدها فوق فروة الغنم، وأزاح خصلات شعرها من فوق جبينها، وقال:
"حسنا ... أنا لست غاضبا من وجودك مع فابريزي. أنت طفلة مسكينة ممزقة الأعصاب."

"مارك."
"ولا كلمة... استريحي قليلا حتى أشعل النار.."
وتوجه الى المدفأة، وبدأ في قطع الحطب، وراح يبحث عن ورقة في جيبه يضعها تحت الحطب حتى تساعد على اندلاع النار، ولمحت رافينا أنه يسحب خطابا من جيبه، ويطلق زفرة حارة من صدره، ثم كوره، ووضعه تحت الخشب، واضرم النار فيه، وبينما كان الخطاب يحترق سمعت الحطب يصدر طقطقة، وكان مارك يحدق في اللهب المشتعل وقد ران عليه السكون.

فجأة استوت رافينا جالسة على الاريكة، وارادت أن تعرف فحوى الرسالة التي كانت تحترق في المدفأة. سألته:
"مارك... ما هذا الخطاب؟ أرجوك انظر الي... أخبرني."
انتصب قوامه مشدودا، وعندما استدار كان قناع أسود اللون يكسو وجهه، وقال بصوت خلا منه الدفء:
"غدا أخبرك."
انزلقت رافينا بجسمها تترك الأريكة وقالت:
"كلا أخبرني الآن."
ونظرت الى النار التي كانت تحرق الرسالة، وحولتها الى رماد وأحست بدقات قلبها تتدافع بسرعة وقال لها بخشونة:
"إنه خطاب مرسل الى رودري برينين، عثرت عليه في غرفتك منذ فترة. خطاب لم تبعثي به أوردت فيه مقابلتك له يوم زفافنا. هل أردد على مسامعك كلماتك؟"
رفعت رافينا يدها وتحسست رقبتها وسمعت صوت مارك رقيقا تشوبه نبرة خطرة:
"احترق الخطاب، ولكن الكلمات لم تحترق. كانت تقول "أرغب في رؤيتك مرة أخرى وأنا لست آسفة، حتى لو غضب مارك.
إن تلك الساعات التي أمضيتها معك ساعدتني على مواجهة موقف بالغ الخطورة. إن روابط الحب بيننا تتطلب السرية التامة. انني أتعلق بها كلما أحسست بأنني أغرق في عمق الماء الذي أتردى فيه."
صمت ثم أردف يقول بغضب:

"هنا توقفت الرسالة. لم تحاولي اتمامها. هل شعرت بأنك لا تحتملين ارسال خطاب اليه في حين كنت تتوقين دائما الى صحبته؟ إن الكتابة عن تلك الساعات التي أمضيتها معه في يوم زفافنا لا بد أنها عذبتك حتى أنك كورت الرسالة والقيت بها، ولم يتطرق الى ذهنك أن زوجك قد يعثر عليها فيلتقطها، وفضها من باب الفضول."
حدقت رافينا ببصرها في مارك، وادركت سوء الفهم الذي التبس عليه عندما قرأ عبارة "تلك الساعات التي أمضيتها معك". كلمات تحمل معنى واحدا عند مارك، فقد ظن أنها هي و رودري عاشقان.
لا بد من سبيل لنفي هذه التهمة، ولكنها رأت صورة المرارة التي ارتسمت على فمه، وأنه على استعداد لأن يزدري أي شيء تقوله، وانتابتها رجفة حينما زمجرت الريح حول الكوخ.
فقال لها:
"أنا أسف.. ليس لدينا أي طعام نأكله، أو شراب نحتسيه، وخير لك أن تكوني جائعة من أن نتورط في حادث على طريق الجبل."
وبحث مارك في جيبه، وأخرج علبة تبغ، واستطرد يقول:
"إن واحدة منها سوف تصيبك بدوار. هل يضايقك إذا دخنت لفافة؟"
قالت بصوت يشوب نبرته اليأس:
"أرجوك، يمكنك أن تدخن."
أخرج سيكارة، وأشعلها، ونفث الدخان دون أن يرفع بصره عن عينيها، ولم تحتمل قوة نظراته التي تحاول أن تقرأ ما يدور في عقلها، وسارت الى المقعد المستدير ذي الارجل الثلاث، وسحبته قريبا من النار، وجلست عليه وراحت تدفىء يديها.
قالت:
"أنا لست جائعة.. وانما أريد فنجانا من الشاي."
وتصاعدت حلقات الدخان في الهواء، وكأنها علامات تساؤل، وقال:

"لانونا سوف تقلق علينا. لماذا لم تمكثي في البيت. كان في وسعي أن أعود الى البيت وحدي. لكن الأمر لا يهم كثيرا."

قالت رافينا:

"سوف تغامر بحياتك؟"

هز كتفيه باستخفاف وقال:

"ولن أغامر بحياتك يا عزيزتي! لا تنظري بانزعاج، لست بصدد أن أعلن عن مدى حبي لك. أنت صغيرة، ودريستي كان صغيرا، والحياة حلوة، حتى لو امتزج اللوز المر بالقرنفل."

سألته:

"هل كان دريستي يشبهك؟"

لم يسبق لها أن طرحت عليه هذا السؤال من قبل، ولكنها الآن تشعر بدافع قوي الى أن تعرف ذلك، وتطلعت الى زوجها وبالرغم من الندوب الرهيبة التي تشوه وجهه الا أنه بدا لها أنيقا في ضوء النار المشتعلة.

هز رأسه بالايجاب وقال:

"أجل كان يشبهني. يجب أن أريك صورته."

وشد على شفتيه وهو يخرج محفظته، ويفتحها، ويسحب منها صورة صغيرة، ويناولها اياها. وراحت تتفحص صورة الطفل ذي الشعر الأسود. عيناه تتلألآن مرحا، وصفحة وجهه تعكس صورة وجه أبيه، قبل اصابته في الحادث.

وطفقت رافينا تتأمل الصورة فترة طويلة، وراحت تكافح الدموع التي أوشكت أن تطفر من عينيها. الآن فقط أدركت السبب الذي دفعه الى البحث عن الفتاة القريبة من قلب رودي، ليجبرها على الزواج منه هو.

.. ومنذ عهد هيلين

.. كان على ان تدفع الثمن، ففي وسعها أن تتذوق المرارة مع حلاوة الحب. وعندما أعادت له الصورة تلامست أيديهما، وتذكرت أنهما وحدهما في الكوخ.

قالت له:

"يبدو أن الريح بدأت تهمد في الخارج."

ولكن العاصفة كانت لا تزال تصفق الباب، والثلج يتساقط مبتلا من مدخنة المدفأة فابتسمت بعصبية، وطفقت تهز كتفيها باستخفاف.

قال مارك:

"أنت متعبة. اخلدي الى النوم. ان الاريكة تصلح للنوم بل هي خشنة ولكنها نظيفة."

لم تنهض رافينا من فوق المقعد وسألته:

"وماذا عنك يا مارك؟ أنا مستريحة هنا بجوار النار."

قال:

"الحطب أوشك على أن يذوي. وعندما تخمد النار سيزداد البرد في المكان. وأفضل أن تتدثري وأنت نائمة فوق الاريكة. تعالي."

ومد اليها يده ليساعدها على النهوض، فقالت له بتردد:

"لا يمكنك الجلوس على المقعد. انه منخفض وانت طويل."

"سأكون بخير. النساء يتمتعن بنعمة القلق."

قالت:

"إننا نستطيع أن نجلس سويا على الاريكة."

توردت وجنتاها بحمرة الخجل، وكأنها عروس في ليلة زفافها، واستطردت تقول:

"لا تستطيع أن تتجول في الكوخ طوال الليل. لن يطرق النوم أجفاني وأنا أراك لا تقوى على الرقاد."

قال ضاحكا:

"هل أنت الإنسانة التي تفكر في؟"

وفجأة انتصبت قامته أمام المقعد المنخفض التي كانت تجلس عليه، ورفعها بذراع واحدة واستطرد يقول:

"لا أستطيع أن أقاسمك الجلوس على الاريكة. فسرعان ما ينتابك الذعر، وحتى الآن ما زلت عصبية من لمس يدي."

أدخلت رافينا قدميها في فروة الغنم لتشعر بالدفء، وألقى مارك بآخر قطعة حطب في المدفأة وفي هذه اللحظة انطفأت الشمعة، وعلى ضوء النار المشتعلة عاد وجلس الى جوارها، وجذبها الى كتفه، وراحا يتطلعان الى النار التي أخذ لهيبها يخبو تدريجيا.

وبدأت أصوات الريح تتلاشى، بينما استغرقت رافينا في النوم، ورأسها مستقر فوق كتفه العريضة، وأمضيا ليلة غريبة، وعندما استيقظت رافينا عند الفجر، وجدت نفسها بين ذراعي مارك، ووجهها يتمتع بدفء عنقه، وظنت وهي نصف حالمة أنهما في برج الفارس، ولكنها أدركت الحقيقة عندما أفاقت تماما ورأت كوخ الراعي وبقايا الرماد في المدفأة.

تركت بصرها يعود ليستقر على وجه مارك الذي كان مستغرقا في النوم وقد استند بظهره الى الطاولة، ولما كان البرد الشديد قد زحف الى الكوخ أثناء الليل، فانه جذبها بذراعه وضمها الى صدره يلتمس الدفء، فلم تشعر بأدنى خوف منه.

والآن أدركت كيف يكون الرجل غير محدي وهو في قبضة النوم. كان شعره مشعثا وذقنه التي كساها الشعر زرقاء وقوية، وشفتاه صارمتين، ووجنتاه تبرزان التجاويف تحتهما، أما ندوبه فلم تنتقل الى ابنه، وانما ورث عنه الكبرياء والعاطفة.

ملكها الذعر، فأسرعت تسبل رموشها، وشعرت بذراعيه تشتدان حولها عندما بدأ يستيقظ، وأطلق زمجرة، واستدار بوجهه وهمس قائلا:

"يا حبيبتي!"

لم يسبق له استعمال مثل هذه الكلمة من قبل، نفذت من فمه ناعمة تشوبها الألفة والمودة وعرفت أنه نصف حالم، ولا يتفوه بها انسان الا للمرأة التي أحبها ثم فقدها.

فتح عينيه وتطلع الى رافينا، وفي الحال بدت فيهما نظرة الحارس الذي يذود عن أملاكه، وفجأة تبين المكان المحيط بهما، فأطلق سراحها بسرعة، وانتفض واقفا على قدميه، وقال:

"يا له من مكان كئيب. هيا بنا يا رافينا. المطر قد توقف، وحان الوقت لأن نعود الى البيت."

تركت رافينا الاريكة، ومدت ذراعيها أمامها، ثم قامت بتسوية شعرها بيدها، وصاحت:

"أشعر بالفوضى في مظهري."

وطفق مارك يجيل بصره فيها، ولاح التجهم على شفتيه ثم قال:

"يبدو عليك وكأنك أمضيت ليلة مضنية فوق سطح قرميدة."

قالت:

"انظر الى نفسك أيضا."

وسبقته الى مغادرة الكوخ لتستقبل هواء الصباح. رأت ألسنة من لهب الشمس في الافق، وسمعت الطيور تشدو على الاغصان. سارا فوق الحشائش المبتلة، ووجدا السيارة مغطاة بقطرات المطر. مسح مارك الزجاج قبل أن يتخذ مكانه وراء عجلة القيادة، ويستقر الى جوار رافينا، واتجها صوب أشعة الصباح المشرقة.

بدأت نسمات الفجر تهب عبر النوافذ، وبدت الزهور متفتحة، وامتزج شروق الشمس بأمواج البحر، ليصنعا معا لوحة رائعة التكوين. وعندما سألها مارك اذا كانت تحب أن يكشف غطاء السيارة، ابتسمت موافقة، والتقطت أنفاسها عندما أخذ الهواء يداعب شعرها المتطاير. انهما يستحقان مثل هذه الرحلة الصباحية، بعدما اقتسما سويا ليلة غريبة، أمضياها في كوخ كئيب وناما على اريكة خشبية.

وفجأة رأى مارك شجرة اقتلعتها الرياح من أرضها، تعترض الطريق، فأوقف السيارة سريعا، وكان من الواضح أنه لا بد من المرور بمحاذاة حافة الطريق شديدة الانحدار اذا ما فكر في أن يدور بسيارته حول الشجرة. ومال نحو رافينا وفتح لها الباب المجاور لها وقال لها:

"من فضلك اذهبي وحدك سيرا على الاقدام. لن أعبر بسيارتي حول الشجرة ومعي راكب."

"ولكن يا مارك ..."

قال:

"لن نناقش الأمر."

ودفعها خارج السيارة، واستطرد يقول:

"سيري حول الشجرة .. وانتظريني على بعد خطوات منها."

قالت:

"أنت السيد"
امتثلت لأمره، لم ينس مارك حطام السيارة الاخرى، والمخاطر التي اجتازتها، ولن يجرؤ على أن يجتاز مخاطرة أخرى.

وعندما سارت رافينا، واستدارت حول الشجرة، تبينت أن المسافة التي ستعبرها السيارة بالغة الضيق، وعلى مارك أن يجتازها بحذر شديد، فقفز قلبها بين ضلوعها. وراودتها الرغبة في أن تقفل عائدة اليه، وتتوسل اليه ألا يخاطر بحياته، وفي وسعه أن يترك السيارة مكانها ويغلق أبوابها، ويطلب من ستيليو الحضور لاستعادتها من هذا المكان، لكنها ما كادت تبدأ في العودة حتى رأت مارك يدير محرك السيارة، ويسير بها بين نهاية أغصان الشجرة وحافة الجبل.

تسمرت قدما رافينا، وبدت كالتمثال الأصم، لا يتحرك منها شيء سوى شعرها الأحمر المتطاير. وتوقفت أنفاسها، وهي ترى السيارة تنسل من الممر الضيق لتنطلق الى الطريق الواسع، وتتوقف الى جوارها، ويفتح مارك لها الباب، وينظر اليها نظرات متسائلة ويقول لها:

"ادخلي."

وقفت جاحظة العينين، ولم تتصور أنه يخاطر بهذه الطريقة، فانتابها غضب شديد هزها من رأسها الى أخمص قدميها. قالت له:

"لماذا تشدني الى حياتك؟ اذا كنت ترغب في أن تعيش مع أشباحك، فلماذا لم تتركني مع جاردي؟ انه سوف يهتم بي."

"رافينا ..."

وراحت تبتعد عن السيارة، ثم بدأت تجري في كل اتجاه، ولم تكن تكترث بما قد يحدث، وسمعت وراءها صوت خطوات تقتفي أثرها، وأحست بحشرجة في حلقها عندما أطبق مارك على عنقها، وأمسك بها:

"رافينا .. أنا آسف أنني أفزعتك."

ألقت بنفسها عليه وقالت:

"أنت لم تفزعني، ولكنك أريتني كيف يبدو زواجنا في صورة مسرحية هزلية ساخرة جوفاء. لم يكن شيئا غير ذلك ... ليس هناك حب ولا عاطفة. لاشيء البتة سوى الذكريات التي نحياها أوه .. لماذا لا تتركني وحدي؟ هل تعرف يا مارك ماذا فعلت بي؟ هل يهمك ذلك كثيرا؟"

هزت رأسها وانعكست أشعة الشمس على شعرها فبدا متألقا، بينما كانت عيناها قد فقدتا ظلالهما واستطردت تقول:

"عرفت الآن الى أي مدى أنت تهتم بي، لن أغفر لك .. مطلقا!"

وتخلصت منه... وعادت الى السيارة، واستقرت في مقعدها، وكان الصباح منسما بجمال البكور، فلم تعد تسمع زقزقة الطيور، ولم تعد ترى زرقة السماء، أو المياه الفضية للمحيط، ولم تكلف نفسها مشقة التطلع الى مارك وهو يتخذ مكانه الى جوارها، ليقود السيارة. كان وجهها باردا، ولم تعد شفتاها ترتجفان. تملكها تحفظ بارد، فلم تعد ترغب في التحدث أو حتى سماع أي حديث. واحترم مارك صمتها، وهو يتخذ طريقه الى منزل السرو.

مرت الأيام بعد ذلك خاوية. لم يأت ستيليو الى البيت، وخلال النهار كانت تقوم رافينا بجولة في القرية، وترتقي التل حتى تبلغ قمته، أو تستلقي في تكاسل على الشاطئ، وتسلمت رسالة من جاردي، وأجابت عليها فوصفت له كاسيل موتني باستفاضة، ولكنها كانت مقتضبة في الكتابة عن حياتها مع مارك. وسوف يعزو سبب اقتضابها الى خجلها الطبيعي، وفي ختام الرسالة بعثت تمنياتها الطيبة الى رودري، ولم تستطع الكتابة اليه بعد تلك الرسالة التي وقعت في يدي مارك.

ولم يحاول مارك الاشارة الى الرسالة الناقصة ثانية، وكانت تدرك أنه قرأها مرارا قبل أن يلقي بها الى النار، وأنه يقتبس منها عبارات كتبتها كاملة، من بينها عبارة "تلك الساعات التي أمضيتها معك". كيف تستطيع أن تقنع مارك بأن الحديث وحده هو الذي ملأ هذه

الساعات التي أمضتها معه.

اتخذت رافينا طريقها الى مكتب بريد القرية، لتبعث برسالتها، وفي طريق عودتها مرت بمنزل جلست ببابه سيدة ترتدي شالا أسود اللون، وتصنع احدى شرائط الزينة، فتوقفت لتبدي اعجابها بالشريط، وسألتها إن كان في وسعها شراؤه، دعتها السيدة الى داخل البيت لتلقي نظرة على عينات مختلفة من صنع يديها، فاشترت باقة جميلة، وزوجا من الأساور.

وقالت المرأة ان اسمها فيرتيويللا، وطلبت من رافينا بابتسامة وقور أن تمكث قليلا وتتناول فنجانا من القهوة معها، وكان ارتياد طرقات القرية جعلها تشعر بالظمأ، فجلست الى مائدة تكسوها المرأة بوشاح من الحرير الأزرق، وانطلقت المرأة بسرعة تجول في مطبخها الصغير، وتعود بالفطائر لتقدمها لرافينا. فكانت لذيذة.

قالت رافينا:

"يجب أن تعلميني طريقة عمل الفطائر. اعتدت طهو بعض الأطعمة قبل زواجي. ويجب أن أعيد المحاولة ثانية وتحدوني الرغبة الى غزو المطبخ في الكازا، ولكن دونا جوكاستا تدير كل شيء، وأنا لا أحب أن أتدخل في شؤونها.

وحدقت فيرتيويللا في وجه رافينا وانتابتها الدهشة لهذا النبأ الجديد، ثم قالت ببطء:

"أنت تختلفين عن سنيورا دوناتا فهي كانت تدير كل شيء، ولم تحاول أن تشتري مني أحد الشرائط لتزين بها ثوبها بل اعتادت أن تشتري ثيابها من روما وكانت أنيقة ومحبوبة جدا."

قالت رافينا بهدوء:

"رأيت صورتها ؛ كانت فاتنة."

قالت فيرتيويللا:

"كانت تبدو سيدة عظيمة."

وأحست رافينا بنبرة ساحرة في صوت فيرتيويللا، كما أن نظرتها كانت تدعو الى التساؤل.

وفتحت فيرتيويللا صندوق سكائر موضوعا فوق

المائدة، وتناولت علبة أوراق الكوتشينة:

"انها سيدة عظيمة مثلك، هل تحبين أن أقرأ طالعك؟"

وضعت فيرتيويللا الورق وانكفأت الصور على وجهها فوق المائدة، فدق قلب رافينا وهي تقول:

"أنت تعنين .. أنك تريدين قراءة حظي؟"

هزت المرأة رأسها بالايجاب، وبدت في صورة امرأة غجرية بوجهها الذي لفحته أشعة الشمس، وشالها الأسود الذي يكسو رأسها، وكانت عيناها مسلطتين على وجه رافينا، وقالت لها:

"ألا تخافين من قراءة الورق ومما قد يكشفه لك؟ وألا يراودك الشك فيما يقوله لك؟"

هزت رافينا رأسها بالنفي وقالت:

"أبدا .. أنا سلتية، وهذا معناه أنني لا أسخر من السحر،

"اذن اقلبي ثلاث ورقات لتبدو صورها أمامي

امتثلت رافينا لطلبها، وقامت مضيفتها بفحص الأوراق، وكان الهدوء يسود البيت الا من بعض الأصوات التي تأتي من حفيف الحطب الموجود فوق السطح، وبين لحظة وأخرى كان الأتان يرفس المربط وكأنه يتململ من صحبته، وأخيرا قالت فيرتيويللا:

"آه ... هناك احتفال ينتظرك يا سنيورا. هل ترين؟ هناك مهرج في أول ورقة وقع اختيارك عليها، وهو مستغرق في الضحك. أجل، احتفال. وقت طيب لك."

ابتسمت رافينا وقالت:

"ربما يكون احتفال مادري روزاريا الذي سنقوم بمشاهدته."

"أنت والسنيور .."

"أجل. إنه يرغب في أن نذهب الى هناك هذا العام."

هزت فيرتيويللا رأسها، ثم ركزت عينيها السوداوين على الورقة الثالثة، وكأن الورقة الثانية لم تثر اهتمامها كثيرا. وتمتمت قائلة:

"هناك طائر بأجنحة سوداء، آه، انه نذير نحس يا سنيورا!

من المحتمل أنه يعني ...."
وتمهلت قليلا لتفحص وجه رافينا التي سألتها:
"ماذا يمكن أن يعني؟ أرجوك أخبريني."
راحت فيرتيويلا تخلط الورق ثم قالت:
"أوه. وقت غير سار. ربما أخبار سيئة، آه، ولكن هذا مجرد تسلية، ويجب عليك ألا تأخذي الأمر باهتمام بالغ."
وقفت رافينا وقالت وهي شاردة الفكر:
"أبدا، يجب أن أعود الى البيت. أشكرك على شرائط الياقة والأساور. ستبدو جميلة على ثوبي الأخضر."
وفي طريق العودة الى الكازا، أخذت الافكار تطن في ذهنها حول ما قالته أوراق الكوتشينة. وحاولت أن توحي لنفسها أنها مجرد تسلية، ولكنها ما كادت تقترب من منزل السرو، حتى حلق طائر موحش أسود اللون في كبد السماء.
كان الطائر الأسود الموحش الذي رأته في الورقة التي قلبتها أمام فيرتيويلا.
وعندما دخلت فناء البيت وجدت مارك يقف في ظلال احدى فجوات المنزل، ينفث لفافة تبغ، أسرعت نحوه، وهي تمسك بالطرد الصغير الذي يحتوي على شرائط الزينة، وقالت له:
"هالو"
وأرادت أن يضع ذراعه حولها، وأن يطرد دفء رجولته البرودة التي تملكتها منذ لحظة وجيزة، ولكنها كانت تشكو من البرودة نحوه لعدة أيام مضت ولم يبذل أي محاولة لكي يلمسها. سألها:
"أين كنت؟"
قالت:
"ذهبت الى القرية واشتريت بعض شرائط الزينة."
وأحست بشيء يعتصر حلقها ويخنقها، وبدا لها أنه يدرك حاجتها الى الراحة، ثم استطردت تقول:
"اشتريتها من سيدة تدعى فيرتيويلا. جلست اليها واحتسيت فنجانا من القهوة معها."
قال وهو ينفض رماد السيكارة:

"حسنا أنا سعيد لأنك أقمت علاقات صداقة مع بعض الناس."
أرخت جفنيها وأحست بالدموع تطفر من عينيها فدخلت وعبرت الصالة التي تؤدي الى درجات السلم، وفي هذه اللحظة لم يبد لها منزل السرو غريبا عنها أو وحيدا فوق الجبال!

٨- خيانة في العيد؟

كانت أشجار الكروم مثقلة بعناقيد العنب. وكان عصيرها حلوا، لكن رافينا أحست بمرارة عندما تذوقته لأن العناقيد لم تكن معدة بعد لعصرها. الجميز أينع فوق الاشجار، وحدائق الليمون تفوح برائحة نفاذة. كل شيء مفعم بالحياة يحمل رافينا على الهروب الى المغارة حيث تقرأ كتابا أو ترطب أصابعها في النافورة، وتتأمل مليا في المستقبل. وأحيانا تمر بها ساعات تستمتع فيها بوحدتها قبل أن يقطع خادم عليها خلوتها ليدعوها الى تناول طعام الغذاء أو تناول الشاي مع زائر.

وعندما تأتي زوجات شركاء مارك في العمل لزيارتها كن يلمحن لها أنها تمتلك المقدرة على أن تسوس قياد رجل قهار مثل مارك، وكانت تضحك قائلة:

"إنني لا أقوى على أن أسوس أمر مارك، وإلا كنت مثل الهرة الصغيرة التي تحاول أن تروض النمر."

وكانت بعض النسوة يسألنها:

"وهل تطرق حديثه معك الى الكلام عن دوناتا؟ كانت فتاة جميلة ولكنها لم تكن هرة صغيرة."

ولم تشهد دونا جوكاستا مثل هذه الزيارات التي كانت تطرح فيها النساء مثل هذه الاسئلة، ولكنها كانت تحب أن تسمع ما دار في هذه اللقاءات، وتدعو رافينا من حين الى آخر الى صالونها لتتناول معها كأسا من الشراب.

وفي احدى المرات كانت تهز كأسها وهي تستمع للحديث

الذي دار بين رافينا وضيوفها، ونظراتها مسلطة عليها، ولكن رافينا هربت من نظراتها ليستقر بصرها في الشراب الذي يتراقص في كأسها، وانتابتها رغبة مفاجئة في أن تمتطي جوادها وتنطلق به.

أسرعت الى غرفتها، وبدلت ثيابها، وارتدت سروالا وقميصا، وعقصت شعرها، وطوته تحت قبعتها، وبعد عشر دقائق امتطت صهوة جوادها، وانطلقت الى رحاب الشمس التي كانت لا تزال تفيض على الكون بأشعتها.

كانت هذه الأيام حارة وطويلة، ولكن الريح كانت تهب دائما عبر السهل الواسع المعشب المطل على البحر، وكان من دواعي البهجة أن يرتاض المرء بجواده ليتنسم الهواء المفعم برائحة نفاذة، وأحست رافينا أن الجواد يطير بخيلاء تحدوه سعادة لا تقل عن سعادتها وهو ينطلق الى رحاب الهواء الطلق، حتى بلغا حدود السهل، وعلى حين فجأة طارت قبعتها من فوق رأسها، وكان لزاما عليها أن تترجل لتستعيدها، ولكن الهواء حمل القبعة بعيدا حتى استقرت عند أكمة الحشائش تقع على حافة المنحدر الصخري الشاهق. وعندما انقضت على القبعة تمسكها بيدها، لمحت عند المنحدر رجلا وفتاة يتجاذبان الحديث، وكانت الفتاة ذات شعر أسود اللون يتطاير مع نسمة الهواء، وتتحدث باهتمام شديد معه، وفجأة أحاطت عنقه بذراعيها، ودفنت وجهها في وجهه. ولم يدفعها عنه، وإنما أخذ يضمها الى صدره.

كان العشب يبدو أطول من الاثنين، فركعت رافينا وراحت تحدق فيهما بعينين شابتهما برودة الثلج. إنها تستطيع أن تتعرف الى الرجل في وسط أي زحام، ولا يمكن أن تخطىء شخصيته وهو واقف مع الفتاة.

نهضت رافينا وابتعدت وتذكرت الفتاة التي كانت بين ذراعي مارك. إنها الفتاة الحافية القدمين التي شاهدتها في المطعم حيث قامت على خدمتها بتقديم أطباق السردين.

أحنى الجواد رأسه يلتهم العشب، وحينما أراحت رافينا رأسها على سرجه أدار رأسه، ووهبها نظرة حنان، وكأن بهجتها الموؤدة انتقلت اليه.

لم يكن شعورا بالغضب أو بالصدمة هو الذي انتابها ، وإنما شعور بالحزن لأن مارك أجبرها على الزواج منه، بينما كان في وسعه أن يجد سعادته أو ربما يستطيع أن ينسى ماضيه مع فتاة من بنات أهله ولدت وترعرعت هنا وتحب الجزيرة كما يحبها هو وتفهم عقد أهل سردينيا ، وتسبر أغوارهم.

تنهدت رافينا ، وتنهد جوادها بدوره، وأدارت رأسه، ليتخذ طريقه الى الكازاتشيبريسو، عائدة الى المنزل مرورا بفناء الكروم، واعتذرت عن الهبوط الى غرفة الطعام لتتناول الغذاء، وعللت اعتذارها بانها تناولت بعض عناقيد العنب الفجة فأصابتها بألم خفيف في معدتها.

ترك مارك ربطة عنقه غير معقودة، واقترب من فراشها ، وانحنى عليها ، وتحسس جبينها بيده، وقال لها:

"أنت تعانين من حمى خفيفة. سوف أستدعي لك الطبيب."

أجفلت من لمسة يده وقالت:

"لا .. أرجوك لا تفعل يا مارك. سأشعر بتحسن حالا. كل ما في الأمر أنني لا أشعر بأدنى رغبة في تناول الطعام."

قال مقترحا عليها:

"ربما وجبة خفيفة تناسبك."

هزت رأسها بالرفض، لأنها لم تكن تشعر بأدنى شهية للطعام، وكان كل ما ترغب فيه هو أن يدعها وحدها ، فجحظت عيناه، وألقى المصباح بضوئه فبدت رافينا ضائعة وحزينة. سألها:

"هل ترغبين في أن أمكث الى جوارك؟"

ندت من فمها كلمة:

"لا .. لا .. سأكون بخير."

"ما بك يا رافينا؟"

تطلعت اليه فرأت ربطة عنقه المحلولة، وشعره الأشعث، وبدا لها كأنه كان متعجلا في ارتداء ملابسه، وشعرت بطعنة نجلاء تخترق ظهرها عندما أبدى رغبته في المكوث معها ، وودت لو أبدت له احتقارها لرغبته، في الوقت الذي يكرس فيه كل أفكاره وأشواقه للفتاة الأخرى. قالت له:

"أريد أن أنفرد بنفسي .. أشعر بألم خفيف."

"ألأنك تناولت الحصرم؟"

أشاحت بوجهها عنه، ولكنه جلس يتفكه الى جوارها على الفراش، وأمسك برأسها المتوج بشعرها الأحمر، وانتشرت خصلاته فوق الوسائد البيضاء، وتلألأت عيناها الخضراوان وسط امتقاع لون وجهها. سألها:

"لم كل هذا العبوس؟ هل قالت لانونا شيئا أثارك؟ لدي انطباع بأن وشائج الصداقة بدأت تربط بينكما."

"هل من الضروري أن أقدم لك تفسيرا لكل حالة نفسية أمر بها؟ ألا تدعني أنعم بالهدوء؟"

"أنت في حالة نفسية غريبة، وهذا ما يقلقني يا رافينا."

"لا تبالي البتة يا مارك .. ولا تفسد طعام غذائك بأمري."

شاهدت نظرة عتاب في عينيه، وتساءلت هل يجرؤ على أن يعاتبها؟ توسلت اليه قائلة:

"اتركني وحدي. أنا .. أنا لا أحتمل أن يلمسني أحد الليلة."

سألها بهدوء:

"أيهما تكرهين أكثر .. ندوبي أم قبلاتي؟"

وشعرت مرة أخرى بطعنة من الألم تخترق جسمها ، وارتسمت صرخة مكتومة على فمها سرت في أوصالها ، فأطلق مارك سراحها ، وتركها ترقد ساكنة فوق الفراش، ثم غادر غرفتها الى غرفته، وأغلق الباب بهدوء وراءه.

ولم يقم بزيارتها ثانية، وبعد نصف ساعة جاءتها صينية عليها شريحة من البطيخ، وقطعة لحم، وبطاطس، والى جوار كل هذا رأت ورقة مطوية، وأحست رافينا باهتزاز أصابعها وهي تقوم بفضها ، فقرأت:

"استدعيت في مهمة عمل، وأرجو أن أعود في نهاية الأسبوع مع موعد الاحتفال بعيد مادري روزاريا. ربما نكون عندئذ في أحسن حال."

مارك

حدقت رافينا في الخط الأسود الفاحم، الواضح وضوح الفتاة ذات الشعر الأسود الفاحم التي كانت في أحضان مارك ، وبهدوء سحقت الورقة. كان يعلم تماما أن

زواجهما يشوبه التوتر الحاد، ومع هذا أجبرها على الرضوخ لرغبته، ورغم الشك الذي يراوده عن علاقتها برودري فإنه هو السبب في أن حياتهما لا تطاق.

تناولت طعامها دون أدنى احساس بمذاقه، ثم جلست تجاه النافذة، وراحت تتطلع الى القمر وهو يعتلي قمة أشجار السرو، وكانت أشعته الفضية، والنجوم المتلألئة، تغسل صفحة السماء كما تنعى هي وحدتها؟!

* * * *

استيقظت رافينا في صباح يوم العيد يحدوها الاحساس بالاضطراب والأمل الذي يخالج كل شابة. إنها سوف تستمتع بيوم كامل تهرب فيه من الكازا .. يوم كله مرح وانطلاق.

عاد مارك متأخرا في الليلة التي تسبق يوم العيد، واستطاعت أن تسمع حركاته في الغرفة المتاخمة لغرفتها، وهو يفتح الدولاب ويسقط حذاءه، ربما نتيجة لاضطرابه بقدوم اليوم التالي.

أخذت رافينا حماما، وساعدتها وصيفتها في ارتداء ثوب الجدة الكبيرة ديمليزا وكانت الوصيفة فرحة بالعيد، وعلمت رافينا منها أن القرية بأسرها تنطلق إلى التلال في هذا اليوم. كل أسرة تركب عربة مزينة أروع زينة، ومزدانة بالشرائط الملونة، وحتى الأتان يكون مكسوا بالورود.

ابتسمت رافينا وقالت:

"أظن أنه احتفال ديني."

"أجل يا بادرونسيتا. تتقدم صورة بادري روزاريا الموكب الذي يحمل المشاعل، بينما يقوم بتوزيع على كل إنسان. ثم يبدأ المهرجون في أداء ألعابهم النارية، على أنغام الموسيقى."

"أرى مدي لهفتك يا روزيتا على الذهاب الى هناك. هل سيذهب صديقك معك؟"

توردت وجنتا روزيتا بحمرة الخجل، وخفضت جفنيها، وقالت:

"تونيو سيصحبني معه على ظهر جواده، إنها الطريقة التي يذهب بها المحبون الى الاحتفال."

قالت رافينا:

"ياله من تقليد جميل!"

ثم فتحت صندوق مجوهراتها، وتناولت ووضعته على صدرها فوق بلوزتها البيضاء، ولحظت وجود قرط كانت نادرا ما ترتديه، أخذته وأمرت روزيتا أن تقف ساكنة، حتى تثبته في أذنيها. فزاد تورد خدي الفتاة وهي تقول:

"بادورنسيتا .. هذا القرط لي أنا؟"

"أجل كم هو جميل في أذنيك. والآن انطلقي، واستعدي للذهاب الى الاحتفال مع صديقك تونيو."

أمسكت الفتاة بيد رافينا، وراحت تقبلها، وقالت لها:

"أنت طيبة القلب. إنني سعيدة الحظ أن أقوم على خدمتك يا بادرونسيتا."

"انطلقي الآن، ولا تجعلي صديقك يطيل انتظاره."

وهزت الفتاة رأسها، لتشعر باهتزاز القرط المتلألىء في أذنيها، وبابتسامة سعيدة أسرعت تغادر الغرفة، وعندما ثبتت رافينا الصليب حول عنقها، تساءلت لماذا لا يحدوها الاحساس بأن تكون خلية البال مثل وصيفتها التي انطلقت الى الاحتفال بصحبة شاب يحبها.

كان الهدوء يسود الغرفة المجاورة، وحدست أن مارك هبط الى الدور الأرضي لتناول طعام الافطار، وشعرت بطعنة ألم، لأنه لم يأت لرؤيتها وهي ترتدي ثوبها الجميل الذي قدمه لها.

راحت تتأمل نفسها في المرآة الطويلة المثبتة في الخزانة، وحاز مظهرها على اعجابها. كان الثوب أخضر اللون بحافته أهداب قمحية اللون، تلائم بشرتها، وشعرها عقصته في تسريحة بديعة، واشرأب عنقها من بين ثنايا فتحة البلوزة، وتألقت عيناها بخضرة الجواهر، وبالرغم من تجاهل مارك لها، والاضطراب الذي اجتاحها إلا أن

عزمها قر على الاستمتاع بكل لحظة من لحظات الاحتفال.

وتساءلت: هل تتوقع وجود ستيليو هناك؟ افتقدت مداعباته وتمنت أن تراه.

وبشعور أشبه بشعور فتاة تعيش في أوائل القرن، جمعت أطراف ثوبها في يدها، واتخذت سبيلها، وراحت تهبط درجات سلم برج الفارس، ولم تقابل أحدا في طريقها، فالخدم نالوا إجازة للمشاركة في الاحتفال، مما أشعرها أن الكازا أصبحت مهجورة.

عبرت رافينا البهو، ودلفت الى غرفة المعيشة، حيث وجدت طعام إفطارها معدا على المائدة: القهوة .. والخبز .. والعسل، وتساءلت وهي تحتسي القهوة إلى أي مكان توجه مارك الآن؟ ربما يكون بصحبة لانونا التي ذكرت في الليلة السابقة بأنها كانت تحرص على مشاهدة الاحتفالات، ولكن عظامها لم تعد تساعدها الآن على مغادرة البيت.

انتاب رافينا القلق، فلم تستطع المكوث، فانطلقت إلى الفناء حيث وقفت تستمتع بأشعة الشمس، وراحت تتناول قطعة من الخبز المقدد عليه طبقة من العسل، وبينما كانت تمسح شفتيها، تناهى لسمعها صوت حوافر تقعقع فوق الأرض، ولاح الجواد أدونيس في الفناء، وعلى ظهره مارك.

هز الجواد عرفه، وبرزت عضلاته تحت سرجه المصنوع الأسود، وكان مارك يرتدي بنطلونا قصيرا أسود اللون، وصدارا مطرزا فوق قميص مكشكش، وأكدت حافة قبعته تألق عينيه. كان يبدو في كل شبر منه واحدا من أهالي سردينيا أو فارسا متكبرا ينطلق للصيد بصحبة الصقور وكلاب الصيد.

قال مارك لرافينا:

"تعالي ... اصعدي واجلسي أمامي فوق الجواد."

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تشدها عيناه، فقد سحرتها من قبل قوة ارادته، وعندما مال نحوها، تشبثت ركبتاه بالسرج، وبحركة قوية رفعها وأجلسها أمامه، واقشعر بدنها قشعريرة خفيفة، مقترنة بسرور خفي، وأمسك بها بشدة بينما أخذ الجواد يبارح الفناء، لينطلق الى عرض

الطريق.

وبعد لحظات أصبحا ضمن الموكب المرح الذي كان يسلك طريقه متجها الى الجبال حيث كنيسة مادري روزاريا. وكانت البغال محملة بأكوام من الفراش والأطفال الهازجين والعربات المطلية باللونين البرتقالي والأزرق. تطايرت أشرطة الزينة في الهواء وجياد عربية امتطاها العشاق الذين راحوا يطلقون أصواتهم بالغناء على أنغام آلات الأكورديون.

كان المنظر كالحلم الجميل، و رافينا تبدو كالطفل المأخوذ الذي لا يجرؤ على الحديث أو الحركة خشية أن يتبخر سحر الحلم، وشعرت بمارك يختلس النظر اليها، ولم تقو على التفكير في الأيام الثلاثة التي أمضاها بعيدا عنها، فكانت مأخوذة بسحر اللحظة التي تعيش فيها. وتطلعت اليه وغطت رأسها بوشاح حريري تتقي به حرارة الشمس، وقالت له:

"المنظر بديع، أليس كذلك. انظر إلى هؤلاء الصبية الأربعة الذين يمتطون البغال، وهذه المرأة التي تحمل الطعام فوق رأسها. على فكرة يا مارك .. نسينا إحضار الطعام لنا."

ضحك مارك وبدا خلي البال مرحا، ولم تستطع أن تمنع دهشتها من رؤية هذا التألق الذي لاح في عينيه. وقال:

"قدمت زوجين من الغنم للحفل الذي سيقام هذا المساء، أما عن طعام الغذاء، فإننا سنجد العديد من الناس الذين سيسارعون إلى تقديم الفطائر والجبن، والفاكهة، ولا أدري كيف سنأكل كل ما يقدمونه لنا."

ازدادت عيناه عمقا وسوادا عندما راح يتفرس في رافينا ثم أردف يقول:

"لم أشهد الاحتفال منذ مدة .. وأخشى أن يغمرنا الناس بكرمهم."

وبينما كان مارك يتحدث الى رافينا، أطلت امرأة من عربتها وقالت:

"إنه حدث جميل أن يشاركنا البادرون وزوجته هذا العام. مادري روزاريا."

"وأنت أيضا يا سنيورا وزوجك الطيب، وأولادك الصغار."

وأحست رافينا بذراع مارك وعندما تطلعت إليه

رأت في وجهه هذا الجمال الاسمر الذي أشارت إليه السيدة فيرتيولا يوم اشترت منها أشرطة الزينة، إذ قالت:

"إنه أشبه بأمير... بل رجل تعشقه الفتيات!"

واليوم يبدو مارك للمرة الثانية وهو يرتدي الثوب السردي، وعيناه فرحتان بمنظر الموكب والأطفال والجمال المتوحش للجبال، كما رأت فيه رجلا لا يتحرق إلى الانتقام لنفسه، فرفعت يده المكسوة بالندوب في ايماءة تنم عن عاطفة، وكأنها تريد أن تخفف من ذكرى الألم الذي اعتصر عظامه، وبشرة يده التي احترقت.

ولم يتبادلا الحديث ثانية حتى توقف الجميع لتناول طعام الغذاء، في مكان يقع عند منتصف الطريق المؤدي الى الجبل، وما كاد مارك يرفعها من فوق الجواد ويهبط بها الى الأرض حتى أحاط بها العديد من أفراد العائلات الذين راحوا يقدمون لهما ألوانا من الطعام.

إنها نزهة تتسم بالمرح، جلسا على العشب وراحا يلتهمان الخبز مع شرائح اللحم والزيتون الأسود، ويحتسيان كؤوس الشراب، وكانت الأغاني تتردد على أنغام الموسيقى، وعندما حان الوقت للعودة سارا إلى حيث كان يقف أدونيس بجوار جدول، وشعرت بيدي مارك تكتنفهما قسوة خفيفة، فندت منها صرخة قائلة:

"مارك"

قال لها:

"أيتها الساحرة الصغيرة. عيناك في خضرة أوراق الشجر يتلألأ فيهما سحر يحطم قبضتي، أو يحيلني الى تمثال أصم."

تلاحقت أنفاسها عندما جذبها بعيدا عن الجواد، واختفى بها وراء صخرة كبيرة تتاخم الجدول، وهناك أجفلت. وغطت عينيها بذراعيها، ومال مارك نحوها، وارتكز بمرفقه على الصخرة، وراح يتطلع اليها، وتهدلت خصلات شعره الأسود فوق عينيه حيث تألق فيهما حيوية الشباب المتوحش. وقام بحل جدائل شعرها. وأخذ يلف الخصلات حول عنقها الأبيض وسألها عن رودري من جديد فقالت مدافعة:

"هذا موضوع ليس له مكان في يومنا هذا، أرجوك، انس رودري، وأنا سوف أنسى أمر تلك الفتاة."

وتوقفت عن مواصلة الحديث عندما ضاقت عيناه، وازدادت حدة، وسألها:

"أي فتاة تقصدين؟"

قالت:

"أنت تعرف ما أعنيه. الجميع شرعوا في الاستعداد للرحيل، وخير لنا أن نرحل معهم."

ألقت رافينا نظرة متعجلة على وجهه وتجهمه، وحينما خطا خطوة واحدة أخذت في الدوران حول الصخرة هاربة منه. وسارت الى حيث كان يقف أدونيس، وكان الناس يستعدون لقطع نصف المسافة المتبقية التي تؤدي الى الكنيسة فوق الجبل، وكانوا يرددون أن الريح وحدها هي التي تدق أجراسها. وبلا تفكير أسرعت نحو الجواد، ووضعت قدمها على الركاب، وسمعت صرخة عاجلة:

"رافينا"

ظنت أنها صرخة غاضبة، فأمسكت بعرف أدونيس ليساعدها على امتطائه واستدار الناس يتطلعون اليها، وبدا الاهتمام على وجوههم عندما تراجع الجواد الى الوراء، ليلقي بها على ظهرها وقد تعلقت قدمها بالركاب وشعرها اللامع يتجرجر على الأرض.

تعالت الصرخات تنبيه الى الخطر المباغت، فأسرع مارك الى الجواد الذي ارتفعت ساقاه الأماميتان عاليا، فأمسك باللجام ليكبح جماحه ويهدىء من روعه، وفي الوقت نفسه سارع شاب لانقاذ رافينا التي كانت تعض شفتيها من شدة الألم.

أطلق مارك سراح قدم رافينا من قبضة الركاب، ولم تستطع أن تكتم صرختها من الألم الذي نجم عن التواء كاحلها، فناولها البعض قليلا من الشراب، وقام البعض الآخر بغمس قطعة قماش في ماء بارد ثم عصبوا بها الكاحل.

أبعد مارك خصلات شعرها عن وجهها الشاحب ثم قال:

"سأعود بك الى البيت."

أمسكت بذراعه وقالت:
"لا، انني أريد أن أحضر العيد."
قال غاضبا:

بينما كانت الوجوه تطل من فوق كتفه، تمتمت امرأة تسأل البادرونشينا أن تركب معها ومع أطفالها عربة العائلة. حاولت رافينا أن ترسم ابتسامة فوق شفتيها المرتجفتين، ثم قالت:
"أرجوك يا مارك، تخلص من الاضطراب الذي يكسو وجهك. انت تخيفني أكثر مما فعله أدونيس بي."
قال:
"كان من الممكن أن يسحقك الجواد بحوافره. ماذا كنت تحاولين عمله؟ هل كنت عازمة على الهروب ثانية!"
عضت شفتيها وقالت:
"مارك .. كل واحد منا يعترض طريق الآخر."
"هل تعترضين طريقي؟"
تحدته بعينيها الخضراوين قائلة:
"اذا كنت ترغب في أن أقول لك نعم. اذن هي نعم."
قال مارك:
"يوما ما سوف أصفعك يا رافينا."
وكان أحدهم يعرف الانكليزية، فأطلق ضحكة خافتة، كسرت حدة التوتر الذي ساد الموقف، فرفعها مارك فوق ذراعيه، وحملها الى عربة يقودها أتان هزيل، تتطلع من فوقها رؤوس أطفال صغار دفعتهم أمهم جانبا قائلة لهم:
"افسحوا المكان للسنيورا!"
وقدمت بطانية لتجلس عليها رافينا ثم أردفت تقول:
"ضعي قدمك فوق هذه الوسادة .. يا سنيورا!"
ابتسمت رافينا في وجه الأطفال الأربعة وقالت:
"شكرا. أنتم أكثر طيبة مما كنت أتصور."
وراحت رافينا تتطلع الى وجه مارك، وبعد بضع كلمات تبادلها معها، واستدار وسار الى حيث يقف أدونيس الذي نكس رأسه نحو الارض، ورآته يعتلي السرج، وعندما

جالت ببصرها في العربة رأت طفلة صغيرة ترفع يدها الى وجنتها، وكأن عينيها تسألان رافينا سؤالا فأجابتها برقة:
"السنيور ... زوجي، جرح وجهه في حريق!"
قالت الطفلة:
"مسكين وجهه"
وأشاحت رافينا بوجهها عندما أحست بالدموع تكاد تطفر من عينيها، وطفقت تقول لنفسها:
"أوه، مارك، أريد أن أفهم السبب الذي يشدنا الواحد للآخر، والدافع الذي يدفع الواحد الى الابتعاد عن الآخر!"
أخذ الأتان يسعى ويرتقي الممرات الملتوية المؤدية الى مادري روزاريا. وترددت في الارجاء دقات الاجراس التي نصبت في برج
قالت أم الأطفال الأربعة:
"أوشكنا على الاقتراب"
ولاحت لهم جدران الكنيسة، والبرج المخروطي الشكل، والأبواب المفتوحة ورأت رافينا جوادا أسود اللون فوق التل، وفارسه جالسا على ظهره في هدوء تام، يقف وحيدا، تكتنفه العزلة، وقد نأى بعيدا عن ضجيج الموكب ودقات الترحيب التي تعلنها الأجراس.
تساءلت رافينا وهي تراقبه: فيم يفكر هذا الفارس وهو جالس هناك؟ هل يفكر في آخر مرة شاهد فيها الاحتفال، أم المرة الأولى التي حضر فيها الاحتفال بصحبة دوناتا، لا بد أنهما جلسا سويا فوق السرج وهما يرتقيان الطريق المؤدي الى الكنيسة، ولا بد أنه كان يهمس لها على أنغام دقات الأجراس: أحبك يا دوناتا .. سأحبك دائما.
وفجأة أدار رأس جواده، واقترب من العربة التي توقفت عند جانب الطريق وقال:
بك في كنيسة مادري روزاريا. سندخل فيما بعد لنشعل الشموع. اخبريني كيف حال كاحلك؟"
انزلق مارك من فوق الجواد، وبادر الى مساعدتها على مغادرة العربة. وسمعا سويا صوتا هادئا يقول:
"هالو"

التفت نحو صاحبة الصوت، فوجد الطفلة الصغيرة تتعلق بالتنورة الحريرية التي ترتديها رافينا، فابتسم لها وقال:
"يجب أن آخذ السيدة معي!"
فاهتزت الابتسامة على شفتي الطفلة وقالت:
"أوه"
مال بجسمه على الطفلة، ولمس برقة خدها وقال:
"أنت ترين يا صغيرتي، ليس معي أحد يشاركني الاحتفال بالعيد. سأكون وحيدا عندما يطلقون ألعابهم النارية."
"ليس عندك أطفال يا سنيور؟"
"لا .. ليس عندي أطفال، ولكن السنيورة زوجتي تريد أن تشاركني مشاهدة الألعاب النارية. هل تسمحين لي بذلك؟"
ابتسمت الطفلة الصغيرة، وهزت رأسها بالايجاب، وتركت يدها التي كانت ممسكة بالتنورة الخضراء، وحمل مارك رافينا وحينما تطلعت اليه، وجدت الابتسامة غاضت من وجهه وتحولت الى كآبة. لا شك أن الامر لا يمكن تجنبه. كان وجود طفلة ساحرة. لا بد أن تذكره بابنه الذي فقده، وعندما لوح لها بيده عادت النظرة المظلمة الى عينيه، وقال:
"تعالي ... يجب أن نجد مكانا نمضي فيه الليلة، ونقيم فيه الفراش حتى يدرك الآخرون أننا قد حجزنا مكاننا. هل تعرفين أنه من الضروري أن نمضي هذه الليلة في أحضان التل؟"
هزت رافينا رأسها بالايجاب، ورأت المصابيح بدأت ترسل أضواءها ودقات الأجراس راحت تدوي، وتتردد أصداؤها فوق الجبال، وتلمس كل قلب بلمسة ساحرة، وبعد قليل سوف تشتعل آلاف الشموع فتبدد الظلام الذي يسود مدخل الكنيسة، ولا بد من مرور موكب حاملي المشاعل الذي تتقدمه صورة ماردي روزاريا، ويحملها أحدهم عاليا حتى يتاح للجميع رؤيتها، وسوف تخترق الألعاب النارية كبد السماء، وتقام الموائد، وتعزف الموسيقى.
كانت التلال شاهقة الارتفاع حتى لامست قممها النجوم التي كانت أضواؤها تتألق في عيني رافينا.

٩- المكتوب ... هو المكتوب

تطايرت الألعاب النارية، وانفجرت، ثم أمطرت وابلا من الأضواء الملونة على الوجوه المشرئبة دهشة، وكان الشواء محملا في أسياخ تتقلب فوق فحم متأجج بالنار.
وكان الاطفال يمرحون وهم ممسكون بالبالونات، بينما أخذ بائع متجول يعرض على الجماهير الحلى الصغيرة، وقام آخر يبيع الدمى المكسوة بالثياب في حين وقف غراب أسود على كتف غجري وراح يلتقط أوراق الكوتشينة من رف صغير، وحينما قرأ الغجري المستقبل لاثنتين من الفتيات انفجرتا بالضحك.
وانهمكت رافينا في التطلع الى كل شيء حتى كادت تنسى ألم كاحلها. كانت ترتدي ثوبا تقليديا جعلها تشعر بأنها مثل هؤلاء الفتيات الضاحكات. وكانت ذراع الرجل السردي تحيط بوسطها، فانتابها الاضطراب ازاء احساسها بالسعادة التي تشبثت بها كما يتشبث هؤلاء الاطفال ببالوناتهم الملونة، التي قد تتعرض لشرارة، فتنفجر.
سألها مارك:
"هل تأخذين حلية صغيرة أو دمية أو ترغبين في معرفة المستقبل، يمكنك أن تنالي الثلاثة اذا شئت."
قالت مبتسمة:
"الحلى الصغيرة لا تناسبني، وعرفت مستقبلي، ولكنني أظن أنني أريد دمية."
أومأ مارك للبائع للمجيء لأن رافينا سوف تضطر الى

أن تطلع وسط الجماهير حتى تصل اليه، وعندما وصل اليهما البائع اختارت دمية ترتدي ثوبا قرمزي اللون، الصدر مطرز، والتنورة مكشكشة، وشريط زينة رفيع فوق الثنية.

قال مارك:

"أعطني الدمية ذات الرداء الوردي أيضا."

والتقطها، وناولها لرافينا. ثم أردف يقول:

"هذه الدمية للطفلة الصغيرة ذات العينين الكبيرتين، ربما تراها ثانية بمحض الصدفة."

شعرت رافينا بالسعادة لأن تجد مارك يتذكر صديقتها الصغيرة التي كانت تجلس معها فوق العربة التي يجرها الأتان الهزيل. وأبدت اعجابها بالدمى، بينما كان مارك يدفع ثمنها.

سألها مارك:

"قلت أنك عرفت مستقبلك. من أخبرك بحظك؟"

قالت:

"انها امرأة تعيش في القرية تدعى فيرتيويللا."

"تقولين فيرتيويللا! آه تلك المرأة التي هجرها ابنها ماركو راعي الغنم ابن الثمانية عشر ربيعا، الذي ضجر من حياته وانضم الى عصابة قطاع الطرق بغية رغد العيش."

"ألا تستطيع أن تفعل شيئا لانقاذه؟ ان أمه امرأة طيبة، تعمل بجد وقلقة على ابنها."

"يجب أن يترك ماركو العصابة قبل أن يمد المرء يده لمساعدته، ويتكفل بأمره. ان المشكلة يا رافينا تكمن في أننا نجد الناس غير مستعدين دائما للعطاء، عندما نطلب منهم بذل جهودهم. حاولت في اليوم الآخر أن أشرح السبب ... ولكن ... انظري ... ماهي ذي الطفلة الصغيرة ذات الشريط المعقود في شعرها."

كانت الطفلة تجلس مع عدد كبير من الاطفال أمام مسرح العرائس، تحدق باهتمام فيما تؤديه الدمى.

تمتم مارك قائلا:

"الأطفال يحبون مشاهدة مسرح العرائس."

وأحست رافينا بالحزن يشوبه صوته، وحدست أنه كان يقف هنا مع ابنه منذ سنتين، وكان يضحك مثل هؤلاء الاطفال الضاحكين، وعيناه تتألقان بمثل الصدق والسعادة اللتين تشعان من عيون هؤلاء الاطفال.

قال مارك:

"اعطها الدمية."

وأشاح بوجهه الذي أضاءته شعلة من عود الثقاب الذي أشعل سيكارته، وأرخى الدخان ستارة فوق التغيير الذي بدا في عينيه، وهما يبارحان سويا بعيدا عن صوت ضحكات الصغار.

أقبل الليل ... وبعد الانتهاء من مشاهدة الألعاب النارية، جلس الناس جماعات، والتفتت كل جماعة حول النار التي أضرمت في الهواء الطلق، وراحوا يتناولون شرائح اللحم المشوي، وقطع الخبز، وأديرت أكواب الشراب، بينما راح المنشدون ينشدون أغاني سردينيا القديمة على آلات الماندولين.

كان مذاق الطعام طيبا، وكان كتف الرجل مكانا مريحا كي تريح رأسها بينما تلاعبت ألسنة اللهب فتلقي ظلالها على الوجوه التي بدت عليها القوة والجمال والوقار.

عكس شعر رافينا تألق النار، وتلألأت عيناها بخضرتهما وهي تستمتع الى أغنية سردينيا تروي قصة حب راعي غنم، وسرها أن تدرك معنى الكلمات التي تتردد باللهجة المحلية، وكانت تقول: "الحياة تجعلني أصرخ .. وأضحك .. واتنهد. أحبها كلها .. أما أنت فأحبك أكثر من أي شيء آخر!"

ودفعها شيء مبهم الى أن تتطلع الى مارك. بينما كانت الموسيقى والكلمات تخف تدريجيا، وظنت أنها ترى ومضة حنان في عينيه، وسرعان ما أدركت السبب، اذ دخل فجأة قوام نحيل الى دائرة ضوء القمر، لها شعر أسود، حافية القدمين، تمسك بيدها دفا صغيرا. انها فتاة المطعم التي راحت تبتسم وهي تدور بين الناس، ثم خطت خطوات سريعة حتى تطايرت تنورتها الحمراء في الهواء، وتوقفت

امام مارك وزوجته وشوهدت ابتسامة على شفتيها، يشوبها اليأس الممض، ثم قالت:

"بادرون؟!"

كانت كلماتها تحمل نبرة التوسل، وتشبثت نظراته بعينيها، ثم بدأت من جديد ترقص رقصة الدف.

توترت رافينا وهي جالسة الى جوار مارك خلال الرقصة، وودت أن تولي الفرار، ولكن كيف لها السبيل، وكاحلها يعوقها عن السير، وسوف تبدو كبرياؤها مهينة اذا هي فرت من فتاة ترقص لزوجها وحده.

رأت رافينا أن الرقصة لن تنتهي، وأصبح فوق احتمالها أن تجلس هكذا الى جوار مارك، وشعرها يحك ذقنه، ودفء كتفه ينفذ خلال بلوزتها الحريرية. وكانت رعشة الدف، وظلال الفتاة تطوف بكل مكان في دائرة ضوء النار، وأخيرا غربت الفتاة، ولكن ظلها بقي في المكان، فأشاع سحابة من الكآبة على رافينا، ولم تستطع الفكاك من أسرها.

بدأ الناس يتثاءبون، وأخذوا يسعون للنوم اما في خيامهم أو في عرباتهم، وتبادلوا القبلات وهم يرددون التهنئة بالعيد السعيد.

شعرت رافينا بيدي مارك فوق كتفها، ونظرت اليه بوحشية عندما جذبها الى صدره، ولكنها سحبت نفسها دون أن تبادله قبلته.

قال بنبرة باردة:

"انها عادة أن يتبادل الناس القبلات في العيد. ألم يدخل المهرجان السعادة الى قلبك؟"

قالت:

"أنا .. أنا أمضيت وقتا طيبا."

ابتسم ساخرا وقال:

"وقت طيب؟ متى تتعلمين أن تكوني واحدة منا - وتشعرين بالعاطفة نحو شيء ما؟ تبدو عليك القسوة حتى يبلغ بك الأمر الى أن تنتزعي الأقراط من أذنيك. هل تدعين فتاة أخرى تسرق منك حبيبك؟"

قالت ببرود:

"أنا لا أضع أقراطا في أذني. ومرحبا بالفتاة التي تستطيع أن تسرق."

وحاولت أن تفلت منه، ولكن ألم كاحلها أفسد عليها المحاولة، وكادت أن تتهاوى، ولم تجد أمامها الا ان تستعين بمساعدة مارك في التوجه الى خيمتهما. كانت ليلة مخملية، يتألق فيها ضوء النجوم. وكانت رافينا اعتادت في رحلاتها المدرسية أن تنام في المخيمات التي تقام في الهواء الطلق، أما الليلة فإن الامر مختلف تماما. انها تسمع صوت الريح تشدو أناشيدها عبر الأشجار التي تكسو الجبال، وعندما تخلد الى النوم، فانها سوف تشارك مارك التدفئة ببطانية من جلد الغنم لتواجه برودة هواء الجبل.

قال مارك:

"الرباط يجب أن يتخفف قليلا حول كاحلك. اجلسي على هذه الشجرة المتهاوية، وسأفعل ذلك بنفسي."

وكان مستحيلا على رافينا مناقشة مارك، وامتثلت لطلبه، وشعرت بقوة لمسة أصابعه وهو يحل الرباط الحريري ويعيد تثبيته خفيفا حول كاحلها، حتى لا تشعر بالخدر أثناء نومها.

"هل الرباط مريح؟"

"أجل، شكرا لك."

وقف ثم استدار بظهره الى شجرة وقال:

"قلت شيئا قبل اصابة كاحلك، ولكنني نسيته حتى الآن. لقد أشرت الى فتاة ..."

قالت:

"مارك ... ليس الوقت أو المكان مناسبين لمناقشة الموضوع، أنا متعبة جدا، يوجد هناك أناس بالقرب منا."

"بالطبع .. ولكن أجيبي فقط على سؤالي يا رافينا. هل تظنين انني على علاقة بامرأة أخرى؟"

وقع السؤال عليها وقعا مفاجئا قاسيا، فقالت:

"اذا كنت تبغي امرأة أخرى فمن الخير أن تدعني أرحل."

ووقفت على قدميها لمواجهته، وأردفت تقول:

"لا تحتفظ بي معك يا مارك. أنت تعلم بانتفاء

السعادة بيننا، وحياتنا تسير هكذا."

واستدارت لتبتعد عنه، وترقد فوق السجادة، وودت لو تخلد للنوم قبل أن يلحق بها، ولكنها سمعت وطء أقدامه تقترب منها، وتوتر جسمها عندما نام الى جوارها، وانتظرت أن يلف ذراعه حولها كعادته، الا انه رقد بعيدا عنها.

استيقظا مبكرين في الصباح، وطويا فراشهما وغادرا المكان ميممين شطر البيت، وبدت لهما الجبال خالية من الناس، ولم يبق أحد سواهما، وخيل لهما أن هذا الحدث لن يتكرر ثانية، وحدثت نفسها قائلة: "انني لن أشعر بأنني أنبض بالحياة. أو أنني امرأة بصحبة رجل. كما أشعر الآن. مارك، أوه، مارك لو أستطيع أن أعرف حقيقة قلبك .. كما أعرف شكل وجهك."

وصلا البيت قبل الظهر وكانت رافينا سعيدة أن تدخل غرفتها، وتغسل جسمها، وترتدي ثيابا خفيفة فضفاضة، وتناولت الطعام وحدها، وأمضت فترة بعد الظهر وحيدة. وشعرت أن مارك نأى بعيدا عنها، لأن لديه شيئا على جانب من الأهمية يخص مستقبلها يريد أن يفضي به اليها. واستبدلت ثوبا حريريا بثوبها وهبطت درجات السلم لتنتظر مارك في غرفة الاستقبال حيث كانت تلتمس الهدوء لقلبها .. وعقلها!

أخيرا جاء مارك وبدا لها رجلا مختلفا وهو في بدلته الرمادية، كان صارما، طويلا، متحفظا، وليس في صورة النردي الذي حملها فوق جواده لمشاهدة الاحتفال بالعيد. واستقرت عيناه على قدميها اللتين استراحتا على مقعد مستدير صغير. وقال:

"كيف حال كاحلك؟"

"يؤلمني، ولكنني سأعيش. ألا تجلس يا مارك. أنت تثيرني بقوامك الفارع وهو يطل علي."

غاص مارك في أحد المقاعد الوثيرة، وراح يبحث عن صندوق لفائفه، وسألها:

"هل يمكنني التدخين؟"

قالت:

"طبعا يمكنك التدخين، أنت تعرف أنني أحب رائحة الدخان."

قال:

"إنني لا أعرف ماذا تحبين يا رافينا!"

ونفث الدخان الأزرق في الهواء، فاتخذ شكل علامة استفهام، انه رمز صامت لسؤال يجول في أعماق قلبها.

قال:

"رافينا."

ردد اسمها، وشعرت أن ما سيقوله مارك سوف يحدد مصير مستقبلها. وحتى هذه اللحظة، كان قلبه لا يلين أمام أي شيء. كان صارما عندما قال لها ستتزوجينني، وستتعلمين كيف تعيشين مع وجههي هذا.

استقرت عيناها على وجهه، وكان غريبا أن تشعر بأن ندوبه لم تعد تثيرها كثيرا. لنه لم يتعود على أن يطأطىء رأسه ليخفيها عن الناس، وأحست أنها توارت عن بصرها، وأصبح ما يعنيها منه قوته وسحر عينيه.

سألته:

"ما الأمر يا مارك؟"

وتقلصت يداها .. وفكرت في الكلمات التي تفوهت بها وهما فوق الجبل حينما قالت له بأن السعادة الحقيقية لن تعرف مكانها بينهما!

قال بصوت حاسم المخارج قاطع النبرات:

"سأغيب عن البيت أسبوعا، لن أخبرك بالسبب، أو المكان الذي سأتوجه اليه، ولكن عندما أعود ستكون لدينا أمور يجب مناقشتها، وحقائق يجب أن نواجهها."

برزت عيناها، وسألته:

"ألا نستطيع مناقشتها الآن. هل يجب علي الانتظار أسبوعا آخر؟"

نهض مارك واقفا على قدميه وقال:

"أجل .. لقد طلبت منك الشيء الكثير يا رافينا، والآن أطلب منك الصبر."

"تطلب مني الصبر يا مارك؟ أن أمضي أسبوعا كله

انتظار وتساؤل، بينما تذهب أنت أينما تشاء، هل هي رحلة عمل أيضا ؟"
قال مترددا:
"ليس تماما ."
"هل لها علاقة بتلك الفتاة ذات الشعر الأسود التي رقصت لك ليلة أمس؟"
توهجت عيناه لتلتقيا بعينيها، وقال:
"رقصت لي؟ هل تظنين؟"
شعرت رافينا بالبرود يكتنفها، واستجمعت شجاعتها وقالت له:
"انني أعرف انك تورطت في علاقتك مع هذه الفتاة. ومن أجلها تتغيب كثيرا عن البيت. اسمعني يا مارك. ليس من المحتم أن تنتظر أسبوعا آخر حتى تناقش أمر مستقبلنا. يمكننا مناقشته الآن. اذا أصررت على الذهاب فلا تتوقع أن تجدني هنا عندما تعود."
بدا التجهم على وجهه، وتقدم نحوها، وقال:
"بل يجب أن تكوني هنا. انني أصر على أن تعديني بالبقاء حتى أعود."
وارتجف صوتها وسألته:
"لماذا تصر على وعدي؟ دونا جوكاستا تستطيع أن تحتجزني في غرفتي."
برزت الندوب جلية في وجهه وهو يقول:
"لا تكوني طفلة، كل ما أطلبه هو ثقتك، لمدة أسبوع واحد فقط. هل يمكنك أن تمنحيني اياها، على الأقل؟"
قالت مترددة:
"على الأقل؟ ظننت انني أعطيتك كل شيء طلبته مني ... انني آسفة .. كل شيء تراه يعد قليلا في نظرك في الوقت الذي يعني عندي المزيد من الألم. انني أعاني من الشقاء وأنا بعيدة عن وطني وتأتي بي الى هنا الى بيت الاشباح والذكريات. هل تظن انني أمضيت يوما سعيدا هنا؟ هل تظن انني اكترث كثيرا في أن تفضي الي الآن أو بعد أسبوع بأن لعبة الثأر انتهت؟"

نهضت واقفة وراحت تجيل طرفها فيه، فلم تأبه لقوته اذا ما قورنت بنحولة قوامها، فقال لها:
"أجل ان لعبة الثأر انتهت. هناك بعض الكلمات لم تقل بعد، ولكن بحق الشيطان لن أتفوه بها الآن. لا أظن انني لا أستطيع أن أقولها."
وتنحى جانبا فبدت صورته الجانبية مطبوعة على الضوء الأخضر. باردة متكبرة، ثم قال:
"كم أود أن أجعلك تفهمين بأن هذه الرحلة هامة وغير هامة في الوقت نفسه وعلي أن أذهب لأنني وعدت بالذهاب. ألا يمكنك أن تعديني؟"
قالت ببرود
"لا، لا، يا مارك."
هز كتفيه العريضين باستخفاف وقال:
"المكتوب هو المكتوب!"
حملقت رافينا فيه وهو يغادر غرفة الجلوس وقد تجمدت كلماته "المكتوب .. هو المكتوب" على شفتيها، وأحست بأن الرباط الضاغط الملفوف حو ل كاحلها قيودا تغل حركتها. ان المكتوب هو المكتوب ولن نستطيع أن نفعل شيئا لتغيير مجرى الأحداث. ووقفت مكبلة بالكبرياء وتركته يذهب الى الفتاة الاخرى.
لانونا لا بد أن تكون راودها الشك في حدوث صدع في علاقة حفيدها بزوجته، ولكنها لم تشر الى رحيله المفاجىء من المنزل عندما التقت بها في صالونها هذا المساء، وانما تحدثت عن تلك الايام التي أمضتها في الجزيرة، وتفحصت رافينا ببصرها مليا، وهي جالسة على السجادة بجوار المدفأة، وقالت لها:
"يمكنك أن تعتبري نفسك امرأة يوم تفهمين السردي. أنت تجلسين تماما كما جلست في تلك الليلة الأولى التي أتيت فيها، كنت طفلة ورحت أتطلع الى شعرك في ضوء النار، وقلت لنفسي: آه .. هذه الفتاة ذات الشعر الأحمر، والعينين الخضراوين ستتسبب في اثارة متاعب كثيرة."
قالت رافينا:

"كنت تريدين فتاة مطيعة سهلة الانقياد!"
قالت الجدة:
"أردت السعادة فقط لماركوس بعد طول الحزن، وظننت أن الحزن سوف يقضي عليه، أو سيقوده الى الجنون، أخبريني يا رافينا متى تفضين له بوجود جنين في أحشائك؟"

نظرت رافينا اليها. وودت أن تنكر ما حدسته لانونا ولكنها اصطدمت بالأمنية الدفينة التي تتراقص في عينيها، فوجدت أنه من الحماقة الانكار، فقد رأت لانونا الكثير من هذه الدنيا، وتشعر بما يتمناه مارك.

تركزت الدموع فجأة في عيني رافينا وقالت:
"وماذا يهم في الأمر؟ كنت محقة منذ البداية يا لانونا. قلت ان الانسان لا بد أن يتزوج من قريته وأنا راحلة."
قالت لانونا مصدومة:
"لا تستطيعين، هناك طفل ... ربما يكون ابنا لماركوس."
"لا يهمني ... انني ما جئت الى هنا لأقدم لمارك ما يريد مني دون أي اعتبار لمشاعري. ان أحاسيسي لم تعد تعنيني، فهو واقع في غرام فتاة أخرى."

اقتربت لانونا من رافينا ولمست دموعها التي انحدرت على وجنتيها، وكأنها اعتادت أن تؤمن بما تشعر به. قالت:
"ما هذا الذي تقولينه؟ كيف تكون فتاة أخرى؟ ماركوس تزوجك."
أطلقت رافينا ضحكة مريرة وقالت:
"ولكنه يأسف الآن على هذا الزواج. زواجنا انتهى يا لانونا، وأنا راحلة."
قالت الجدة:
"هنا بيتك، كل أطفال دي كورزيو ولدوا في منزل السرد، وهنا سيولد طفلك."
قالت رافينا:
"سيولد طفلي في رافنهول."
ووقفت على قدميها، واستطردت تقول:

"ألا تعلمين أن مارك يمضي هذه الليلة بصحبة امرأة أخرى؟ انها من بنات الجزيرة. لها شعر أسود مثل دوناتا. ربما يجد لديها كل ما فقده."
"انه طفله ... كوني عاقلة."
"كنت عاقلة أكثر من أي إنسان آخر، ولكنني لا أستطيع أن اتمسك بالتعقل تجاه علاقة مارك بالفتاة."
وبدت لانونا فجأة امرأة عجوزا طاعنة في السن بالغة الاعياء وقالت:
"لا توجد أية علاقة على الاطلاق. زوجك يا طفلتي ذهب للبحث عن ماركو كريستي. وهذا معناه الذهاب الى الجبل حيث يختفي قطاع الطرق. لم يرغب مارك في أن تعرفي بالأمر، وانما أفضى به الي، وطلب مني أن أحتفظ بالسر. انهم رجال خارجون عن القانون، وقد توسلت له الفتاة أن يبحث لها عن فتاها، وقال انه سيسرك اذا استطاع أن يقنع ابن فيرتيويلا بالعودة الى أمه، ويسلك حياة شريفة."
شيئا .. فشيئا .. أخذت الكلمات تخترق قلب رافينا وسألت:
"لماذا لم يخبرني؟ لماذا احتفظ بهذا السر؟"
قالت الجدة:
"ربما ظن أنك ستقلقين عليه، أو ربما خشي ألا تسمحي له بالذهاب."
وأخذت يدها تهتز، وأومأت لرافينا قائلة:
"ألا تسكبين لي كأسا من الشراب يا طفلتي؟ أشعر أنني في حاجة اليه. ومن طلعة وجهك أرى انه من المستحسن أن تشاركيني باحتساء كأس! سوف يساعدك على النوم."

وبعد مضي يومين سمعت طرقة على باب غرفة نومها، فتحته ورأت رينزيو أمامها يحمل في يده رسالة لها وصلت لتوها، وشاهدت طوابع انكليزية على ركن الظرف وبدا عليه خط رودري برينين في غير اتساق.

سألها رينزيو وعلى وجهه علامات قلق واضح:
"هل تريد سيدتي فنجانا من القهوة؟"
"أجل احضره لي في غرفة الجلوس، سأقرأ الرسالة هناك."

وقفت في غرفة الجلوس فترة طويلة تحاول فض الرسالة، ولكن أصابعها لم تطاوعها على فتحها، وكانت تخشى أن تحمل في طياتها أنباء سيئة، ولكنها تحاملت أخيرا على نفسها، وفتحت الرسالة بأصابع باردة، متوترة.

كتب رودري لها يخبرها بعودته الى استراليا، واقنع أباه بالذهاب معه، وأنهما سيستقلان باخرة، وأخبره الطبيب بأن الرحلة البحرية سوف تفيد جاردي وحيث أن رافينا تزوجت واستقر بها المقام في سردينيا فلا يوجد أي مبرر يدعو للابقاء على رافنهول، فأعلنوا عن بيعه.

جلست رافينا على مقعد لأنها شعرت بوهن يسري في أوصالها. انها لا تصدق أن جاردي يبيع رافنهول، وسوف يذهب مع رودري الى نيوسوث ويلز انه مكان بعيد يصعب عليها بلوغه، وشعرت أن أقرب الناس هجروها!

وتذكرت طفلها! قالت منذ ليال قليلة مضت أنه سيولد في رافنهول، لكن البيت الذي أمضت فيه طفولتها سيصبح ملكا لانسان غريب عنها. وأحست برغبة في البكاء، فلم يعد هناك أي شيء يمكن أن تتعلق به، لا جاردي ولا بيت ولا واحد يمكن أن تركن اليه. وعندئذ سمعت وقع أقدام تقترب منها وتقول:

"ان فنجانا من القهوة أفضل من لا شيء.."

وتطلعت ببصرها لتأخذ الفنجان، فوجدت انسانا طويلا يقف بالباب وقد بدا عليه الاجهاد، وفي نظراته علامات الفضول، فصرخت قائلة:

"مارك!"

فقال مبتسما:

"ظننت أنك رحلت."

قالت:

"لانونا أخبرتني بسبب ذهابك الى الجبال لتقابل قطاع الطرق."

عقد ما بين حاجبيه، وكسا التراب حذاءه، ورأت مزقا في قميصه. قال:

"لا تقولي بأنك كنت قلقة علي؟"

سألته وهي تمزق رسالة رودري قطعا صغيرة:

"هل وجدت ابن فيرتيويللا؟ هل تحدثت معه؟"

"أجل. كان في حاجة الى من يقول له "انك فتى أحمق" وان امه وفتاته في انتظار عودته الى البيت ليمنحاه حبهما هذا الحب شيء لا يستطيع أن يطلبه أو يستدينه أو يسرقه. انني أحسده."

ورفعت رافينا عينيها عن الرسالة الممزقة، وتطلعت الى مارك وقالت:

"الا من الفتاة التي تحبه؟"

"أجل.. بالرغم من الأذى الذي أصابها منه، فانها تحبه."

"أنت تمزقين هذه الرسالة يا رافينا."

نظرت الى قطع الرسالة في دهشة وقالت:

"انها رسالة من رودري."

انتصب مارك واقفا وقال:

"رودري؟ وتمزقين رسالته؟ لماذا؟"

"أنا.. أنا لم ألحظ أبدا.. إنه سيذهب الى استراليا مرة ثانية، وبصحبته جاردي. لقد باعوا رافينهول."

"اذن لن يكون أمامك أي مكان تهربين اليه؟"

"أوه.. مارك"

ووضعت وجهها بين يديها، لأنه لا يشعر بما تشعر وتمنت.. ولكن تمنت ماذا؟ وسرت رعشة في أوصالها عندما خطا نحوها ولمست يداه كتفيها. سألها:

"هل تريدين الذهاب الى استراليا؟"

شعرت بقربه الى جوارها، وأدركت تماما ماذا تريد.

هزت أنفاسه شعرها وقال:

"رافينا.. هل تريدين أن أحررك مني؟"

تطلعت اليه وأدركت أنها لن تتحرر منه، ولن تهرب من الحب اذا نبض القلب به. وفي هذه اللحظة شعرت انها لا تستطيع أن تختار حريتها، كما أنها لم تعد تقوى على العيش معه بدون حبه.

سألته:

"هل ستدعني أرحل؟"
"لن أدفعك الى البقاء. هذا اذا لم تكوني راغبة في ذلك."
ولأول مرة رفع مارك يده ليغطي وجنته المشوهة، وقد بدت سحب الالم في عينيه. واستطرد يقول:
"كيف لي أن أسالك أن تحبينني كيف لي أن أطمع في قدرتك على الاحتمال؟ انني لا أملك حديقة ورود أقدمها لك. وكل ما أملكه منزل اشباح وذكريات."
واستعد ليغادر الغرفة عندما استوعبت فجأة كل ما قاله لها، فقفزت واقفة على قدميها، وصرخت تنادي اسمه:
"مارك ... حبيبي!"
فوقف ساكنا تماما، رأسه شامخ بالكبرياء، ولم يستطع أن يلتفت ليتطلع اليها، فأسرعت وشخصت ببصرها اليه، وقالت برقة:
"انني لا أكره قبلاتك أو ندوبك."
واشرأبت بجسمها، وجذبت رأسه اليها، وكانت شفتاها ناعمتين، وهي تضع قبلة على وجنتيه التي تكسوها الندوب. وأردفت تقول:
"ان الحب أعمق من الندوب الغائرة يا مارك!"
سألها والشك في نظراته:
"كم يطول هذا الحب؟"
أشارت بأصبعها الى المزق في قميصه وقالت:
"لا أعلم وانما كنت أشعر بأنني أحبك دائما."
"كنت تكنين الكراهية لي."
أمسك بيدها، وشعرت بنبض قلبه، وأردف يقول:
"أنت تزوجتني، وأنت تعرفين بأنني لن أقوى على الحاق الأذى بصديقك الغالي رودري. إنك توجهت لمقابلته يوم زواجنا."
قاطعته ... قائلة:
"جاردي كان مريضا .. وكنت خائفة من نتيجة ما سيحدث لو أن رودري أفضى له بحادث السيارة. كان رودري يريد أن يعترف لأبيه ... واستغرق الأمر مني فترة لكي يعدل عن اصراره على الاقرار بجريمته."

"كان اعترافه سيحررك من أي التزام نحوي ... الم تراودك الرغبة في أن تكوني حرة؟"
جذبها وهو يتحدث اليها، فوضعت ذراعيها حول عنقه، ونظرت الى عينيه، وفي خجل ضغطت وجهها على صدره، وقالت:
"لم أكن أعرف حقا ماذا أريد حينئذ، ولكنني الآن أعرف ماذا أريد. انني أريد أن أسعدك يا مارك سعادة تفوق ما قدمته لك دوناتا."
التفت يداه حول وسطها، فندت زفرة من فمه وقال:
"تزوجت دوناتا لأرضي أسرتي، ولكنني تزوجتك لأرضي نفسي. كنت على استعداد لأن أزيح من الوجود أي انسان يعترض طريقي. كنت أطالبك بدفع الثمن وفاء للطريقة التي فقدت بها ابني دريستي، أما الآن فلا أكاد أتصور أنك تقدمين لي حبك."
وقفت رافينا على أطراف اصابع قدميها وهمست في أذنه بسر معين، ومضى وقت طويل قبل أن يعود كل واحد منهما الى الحديث.
وسرعان ما غابت الظلال من منزل السرو، وترددت ضحكات طفل في أرجائه، وراحت رافينا ترقب بحب زوجها وهو يرفع الصبي الى كتفه وينظر اليها بعينين تتألقان حبا. ولسان حالهما يردد "المكتوب ... هو المكتوب!"